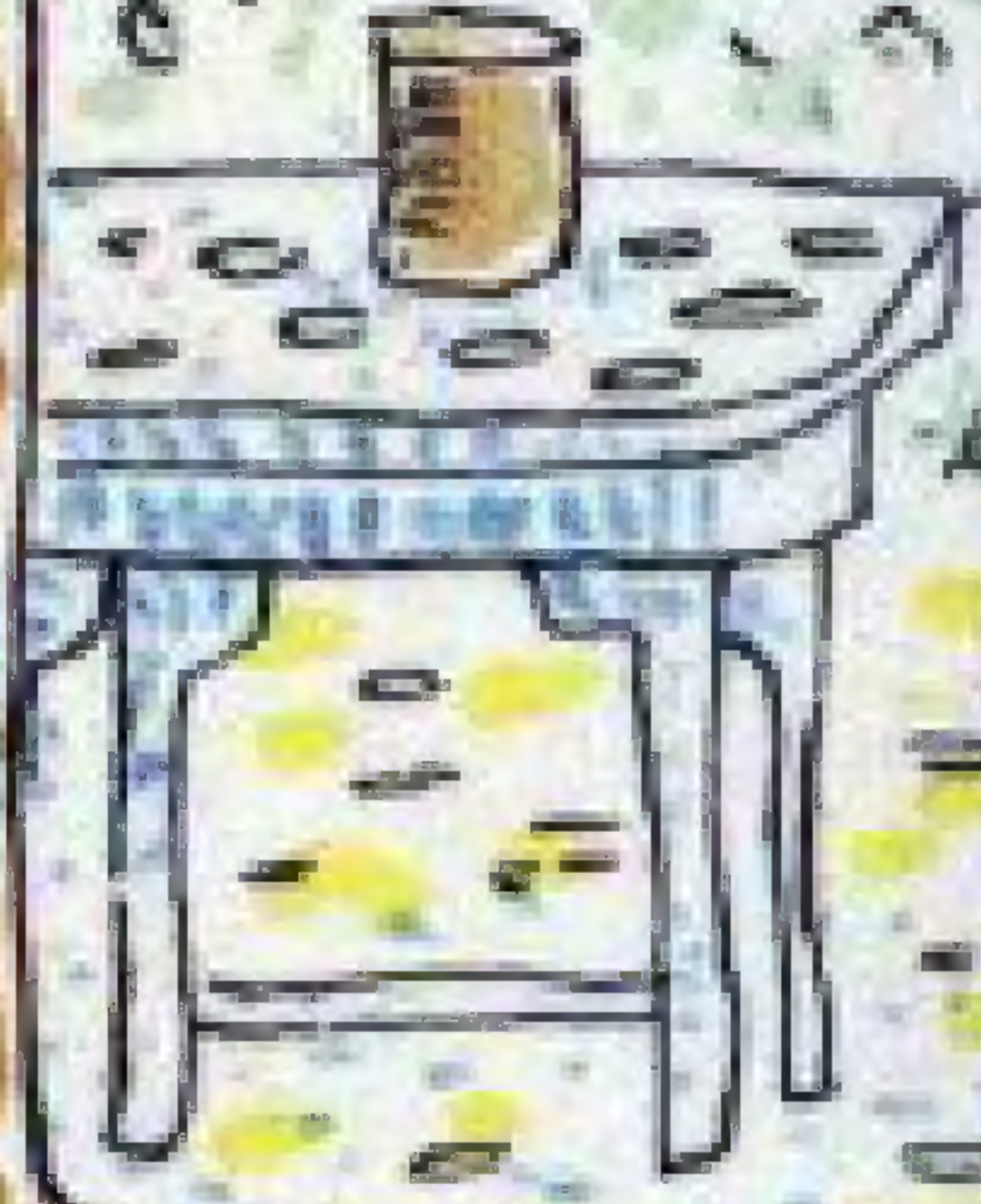


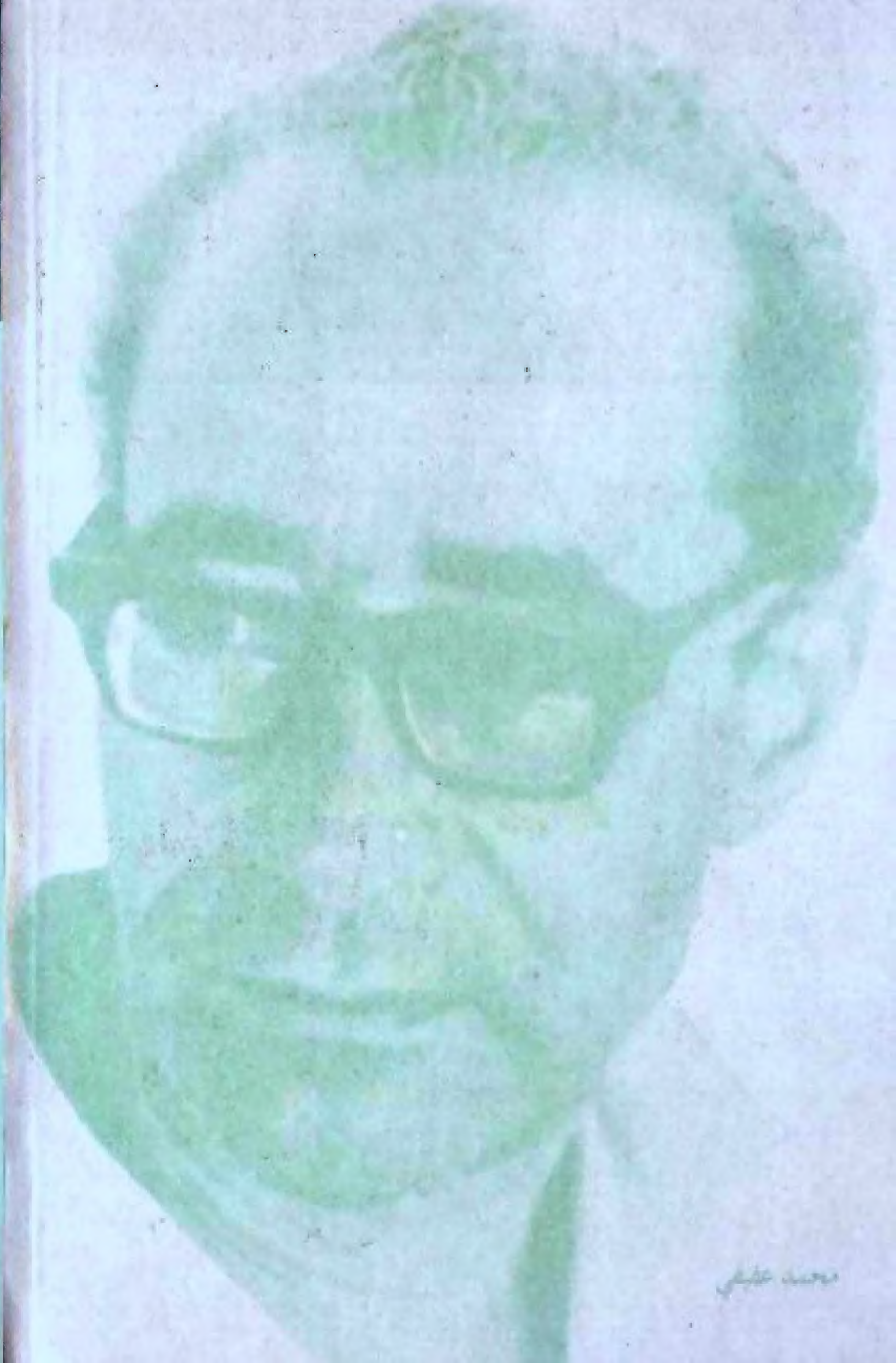
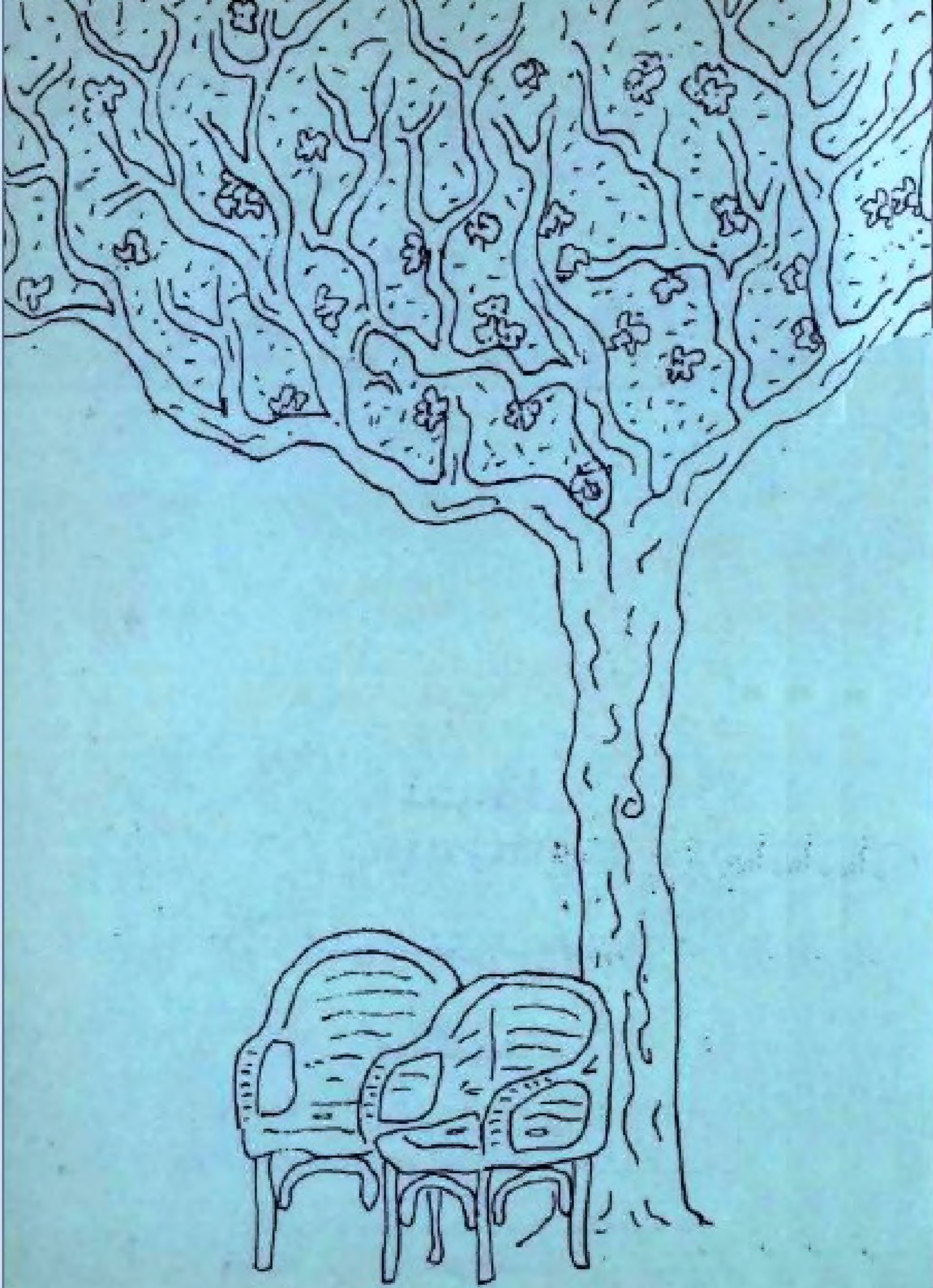
# نزهة عن ظلالها



دار الشروق

حلمي التوي





محمد علی



# محمد عفيفي ترانيهم في ظل قمارا

:: سهر الليل :: ليلاس ::

[www.liilas.com/vb3](http://www.liilas.com/vb3)

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

بيروت : ص. ٨٧٤ - هاتف : ٣٦٥٥٨٩ - ٣٦٥٧٠١ - بوليا : الشروق

تلخيص : SHOROK 20175 L.B.

القاهرة : ١٧ شارع جواد حسن - هاتف : ٧٧٤٥١٥ - ٧٧٤٥١٦ - بوليا : الشروق

تلخيص : SHOROK 175

SHOROK INTERNATIONAL: 281/281 RESORT STREET, LONDON W1, UK. TEL: 037234314

TELEX: SHOROK 257780

دار الشروق



هذا هو آخر ما كتب محمد عفيفي ، قبل أن ينتقل إلى العالم الآخر . ولا شك أن عالم محمد عفيفي الآخر سيكون يمثل بساطة وجمال وصفاء وصدق عالمه الأول ، عالمه الأرضي .. بينه وحديقته اللذين عاش بينهما حياته ، خاصة آخر أيامها ، يتأمل ما حوله بعين فنان وعين شاعر وعين فيلسوف .

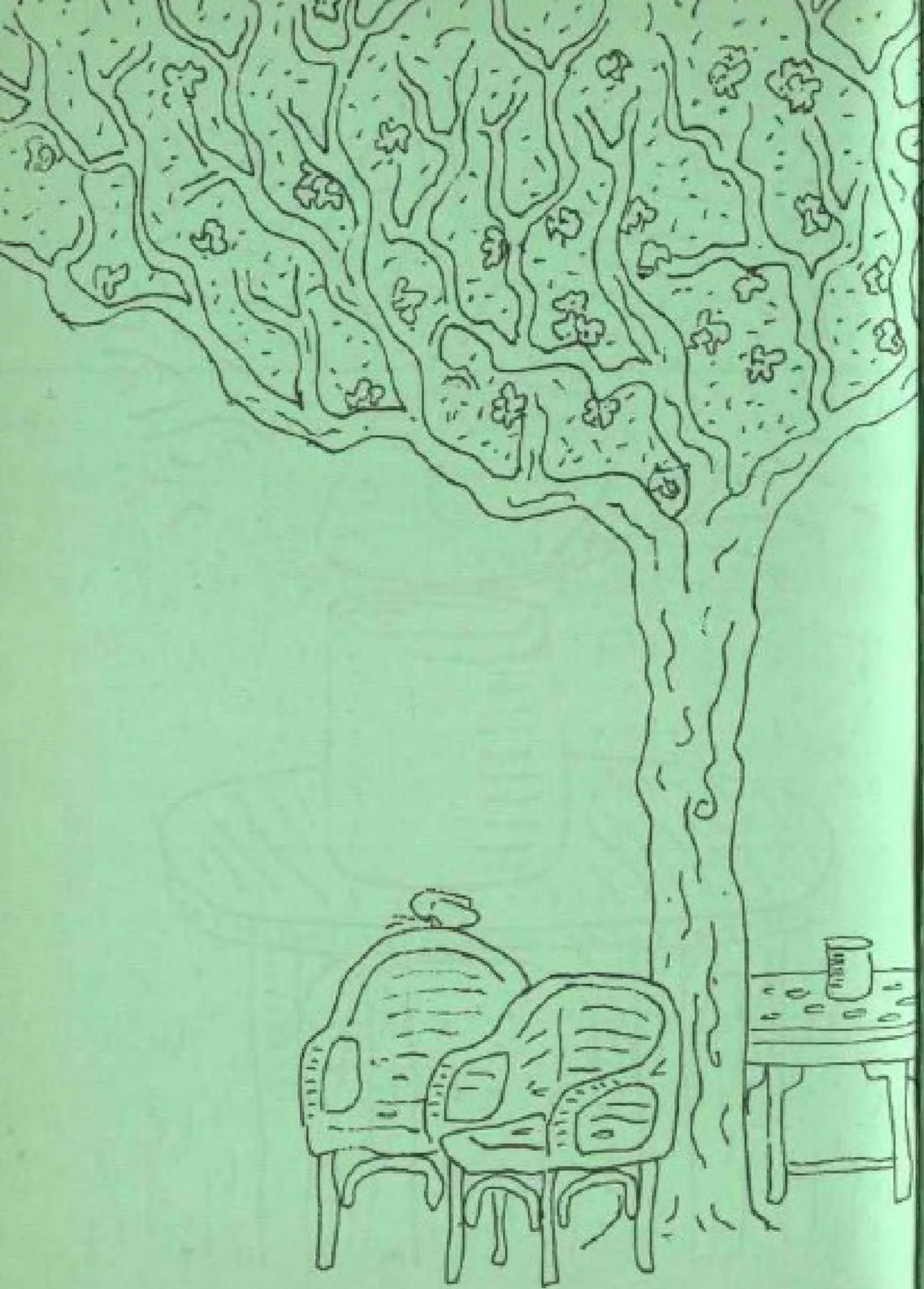
إن أجمل ما في هذا الكتاب هو تكران الذات الفني - إذا جاز التعبير - فعفيفي يكتب عن العالم من حوله ، وهو في وسطه ومحوره ، ولكنك لا تشعر لحظة بوجوده هو ، أي الكاتب ، إنه يحول نفسه إلى إطار أو نافذة سحرية متحركة ، يوجهها نحو تفاصيل وعناصر الحياة العادية ، فتري من خلالها العادي وقد تحول إلى شيء غير عادي ، تحول إلى عمل فني ، كل الأشياء إذا رأيته من خلال نافذة محمد عفيفي السحرية ، كل الأشياء ، تكتسي شفافية غريبة تبوح لك وتظهر بواطنها

وأسرارها ، أسرارها الجميلة .. أو سر جمالها . كل الأشياء وأبسطها .... يقع الضوء على مقاعد الحديقة ، أزهار الياسمين على بساط الغرفة ، الوجوه والأشخاص في زهرات البانسيه ، القطط ، الكلاب ، الحشرات .. العصفير .. الحياة .. المرض .. الموت .. كلها تتحول إلى تماثيل بللورية شفافة ، يرغرف حولها فراش أبيض يلمسها بأجنحة رقيقة من أسلوب محمد عفيفي ، الذي يتنقل بيسر وسلاسة وراحة تامة ، بين العلم ، أو التفسير العلمي لظواهر الحياة وبين التأمل الفلسفي الفني الساخر لتلك الحياة .

هل كانت هذه السطور هي دعاء محمد عفيفي الأخير ، هل كانت دعاء وتسبيح فنان يتقرب من ربه عن طريق التأمل الفني في بديع خلقه هو .. الفنان الأعظم ؟

حلمي التولي





## « على الكرسي القش الأصفر العتيق »

« ملاحظات في حديقة مشمسة على نماذج من الحيوان  
والطير والشجر وبعض بني البشر ، لرجل عجوز يجلس  
على الكرسي المذكور » .

محمد عفيفي



## الفصل الأول

« فراشة جديدة كل يوم - ليمونة على دماغ القطعة السوداء - التقلية  
ومغزاه - ماذا تقول العصافير - الضفدع الحائر - الشاي بتكهة من  
نور الضحى » .





## الفراشة البيضاء

الفراشة البيضاء ومضت فوق السور النبائي المرتفع كعادتها كل صباح ، وكعادتي أسفت لأنني يجب أن استبعد ذلك الشعور اللطيف بأنها هي نفس الفراشة التي تزور حديقتي كل يوم . لكن أحداً لا يستطيع أن يصادر حريتي في الاقتراض الذي يريحني ، وتلك الفراشة الواحدة الفرضية قد أسميتها بيني وبين نفسي فروشة . ورفرفت فروشة هنا وهناك باحثة عن رزقها حتى جذبتها وليمة الألوان في حوض « البانسية » فألقت بنفسها فيها ، وعلى إحدى الزهور حطت مبسوطة الجناحين تنهل في حب من عذب الرحيق . وكان بجانبها زهرة رسم عليها بالأصفر والبنّي وجه قرد صغير ضاحك ، وأخرى عليها طفل بنفسجي مذعور ، مكان لطيف لفراشة لطيفة بيضاء .

بجانبي حيث جلست على الكرسي القش الأصفر العتيق ، مستظلاً بصديقتي العزيزة تمارا ، التي من خلال أغصانها تتساقط عشرات من دوائر الضوء الصغيرة البيضاء ، وتنقرش حولي مثل قروش فضية متراقصة . على النجيلة الخضراء التي تكسو الأرض حولي ، وعلى الترابيزة المستديرة المصنوعة من الخشب الخشن الأبيض - الأبيض الغامق إذا جاز التعبير . وفوقها كوب الشاي الكبير الخزف البني ، الذي انكسرت أذنه من زمان فحمدت الله على الخلاص منها ، وقرش فضي سقط على سطح الشاي

متلاعباً كأنه عين تغمر ، سيكون لطيفاً أن أفوق شاي بنكهة من تور الضحى .

هنا أحب الجلوس في هذا الجو المعتدل من أوائل الخريف ، حيث أحظى من الشمس بدفئتها دون لسعتها . فليس من أجل عطر تمارا أجلس تحنها ، لأنها قلما تجود بعطرها إلا قبيل الغروب والنهار يسلم المفاتيح للمساء . وأمانة دهشت عندما أخبرتها للمرة الأولى منذ سنوات أنني قد أسميت هذه الشجرة تمارا ، ولكنها لم تلبث أن قالت معترقة :

- طب والنبّي لايق عليها !

فقلت لها شارحاً سر تلك التسمية :

- شجرة تمرحنة ح اقول لها يا ايه الا يا تمارا ؟

- وانت لازم تناديه باسمها ؟

- طبعاً ، عشان تعرف اني باكلمها هي .

وكانت أمانة تعرف أنني أحب أن أكلم الأشجار ( غير متوقع منها أن ترد علي طبعاً ) فاكثفت على سبيل التعليق بأن تصعبت وقالت مازحة :

- ربنا يكملك بعقلك !

وأما عن زهرة فهي تعرف كيف بدأ اسمها . في أول الأمر بترهيرة نسبة إلى ليمونها ، ثم أخذت الباء تذوب يوماً بعد يوم في أكواب العصير حتى أصبحت زهرة .

وأغصان زهرة تتلامس ، وفي بعض المواضع تتشابك ، مع أغصان جارتها تمارا في محبة وود أكيد . وكان طبعياً أن تبدو مزهورة بما حملت من الحبات الناضجة الصفراء ، المنتخفة بالعصير كما يجب أن يكون البترهير . وحكيم قديم زار مصر ورأى ليمونها فقال « عجبت لهؤلاء



القوم كيف يمرضون وعندهم الليمون ١١ ولا شك أنه كان صادق  
الحدس في إدراكه لفضل الليمون من قبل أن يعرف الناس شيئاً عن  
الفيتامينات ، وما أظنه كان محتاجاً في استكشافه لقيمة الليمون إلى  
أكثر من أن يرفع إلى أنفه ليمونة صفراء كهذه ويشمها ، ما لم يكن  
قد حكها بظفره ومسح لحيته بما نضح على قشرتها من عصيرها الشافي ،  
فصار يملأ لنفسه كل يوم كوباً من العصير ويشربه على الريق ليزداد  
حكمة .

وعلى غصن من زهرة حط عصفوران ، يتصايحان وفي بعض  
شئونهما يتجادلان . ولقد كنت زمان أظنهما يتغازلان كما زعم الشاعر  
وبتناجيان بأعذب الألحان ، حتى علمني طول الجلوس في الحديقة  
أنهما في حقيقة الأمر ، وفي معظم الأحيان ، يتخانقان ويتبادلان من  
الشتائم أوسخ ما يعرفان . ولقد حاولت أن أتخيل نوع الشتائم التي تتبادلها  
العصافير فعجزت عن ذلك ، وطلعت مليئة بالبذاءات البشرية التي  
تجعلني أنزه عنها ذلك الجنس اللطيف من الكائنات المجنحة .

وما لبث العصفوران أن طارا بعد أن هزا الغصن بقوة فأسقطا منه  
ليمونة كبيرة صفراء ، وكان سقوطها على دماغ القطعة السوداء على  
بيضاء . ولعل هذا هو السبب في أنني أفضل الجلوس تحت تمارا عن  
تحت زهرة ، فما أظنني أكون سعيداً بليمونة كبيرة في كوب الشاي  
المخرف البني . وكانت القطعة قبل ذلك نائمة على النجيلة الخضراء تستمتع  
مثلي بدفء القروش الفضية المتراقصة ، ثم تنهت على صوت العصفورين  
فرفعت رأسها وصوبت نحوهما عيني خضراوين ناعستين ، واختلجت  
شفتاها مع شاربها كما يحدث دائماً في مثل هذا الظرف ، مع نوتة  
خافتة مرتعشة هي التجسيد المرير لشوقها اليائس إلى هذا البروتين الطائر .

وناظرا إلى هذين الفكين المرتعدين كدت أسمعها تقول :  
- يا رب ! خلقت لنا العصافير لكي نأكلها ونسبح بحمديك ، فلماذا  
يا رب - لماذا ! - خلقت لها أجنحة تهرب بها منا ؟ ؟

وكانت تلك هي اللحظة التي سقطت فيها الليمونة الصفراء على  
دماغها السوداء ، وربما كان ذلك عقوبة لها على اعتراضها على إرادة  
الخالق . فهبت مذعورة تتلفت حولها مستكشفة سر ما حدث ، ومدى  
لحظة ركزت بصرها علي أنا - بصفتي الشخص الوحيد الموجود - بنظرة  
اتهام خضراء . ثم انها ما لبثت أن نسيت كل شيء عن الأمر فباعدت  
بين فكها كالكهف وتثاءبت . وطبعاً كان اسمها في البداية بوسي مثل  
كل القطط المصرية من الطبقة الوسطى ، لكن صاحبها حمادة شرع  
فجأة يناديها باسم موني ، ويوماً بعد يوم صارت تستجيب لهذا الاسم  
الجديد . وبسؤال عن السبب في هذا التغيير قال بتلك اللثغة التي لازمت  
إلى ما بعد سن الخامسة !

- هي قالت لي ان اسمها كده !

والحكاية كلها بالطبع أنه قد اختار لها اسماً خالياً من حرف السين  
لكي يسهل عليه نطقه .

مدت موني رأسها تشمم الهواء ، إذ سبقني كالمعتاد إلى التقاط  
تلك الرائحة الشهية التي بدأت تعطر جو الحديقة ، رائحة ثقيلة تصنع  
في المطبخ . والثقيلة تصحبها الملوخية ، والملوخية قلما تتواجد بغير فراخ  
أو أرانب في أضعف الإيمان ، سلسلة من الاستنتاجات لا أزعج أنها  
قد مرت بهذا الوضوح في تلك الدماغ السوداء ، وإن كنت لا أستبعد  
ذلك من قطعة عمرها عشرون عاماً بعمرنا نحن البشر ، أي أكثر من  
مائة عام بما يناسب عمر القطط .



الرائحة وفدت من باب الشرفة المفتوح ، بعد أن مرت بالصالة آتية من الطريقة الصغيرة المؤدية إلى المطبخ ، حيث أتخيل أمانة واقفة في فستانها الرمادي وسط سحابة كثيفة بيضاء من بخار الحلل . وإزاء تلك الرائحة نسيت موني كل شيء عن الشمس وأسهرت متواثبة نحو الشرفة في نشاط مفاجئ .

وصوت خرفشة تحت السور النبائي عرفت مصدره من قبل أن أنظر إليه ، وقبل أن أواجه العينين السوداوين الجاحظتين للكائن الذي وقف يرمقني في تساؤل ، الضفدع الكبير - أو الضفدعة الذي يأتي بين حين وآخر والذي سمحت لنفسه - على عكس الحال مع الفراشة البيضاء - بأن افترض أنه ضفدع بذاته لا يتغير .

- آووو !

كلمة واحدة موجزة يقولها لي كلما مر من هنا ، ثم يقفز قفزة تدخل به من خلال السور إلى الشونة وراء السور الباقي . ضفدوع كما أسميته إذا كان ذكراً ، فإذا كان أنثى فعليه أن يضيف لنفسه تاء التأنيث . واندفع من حوض البانسيه جسم صغير أبيض ، للفراشة التي شبت من الرحيق فطارت . ولطالما تساءلت هل تشيع الفراشة بهذه السرعة لأن بطنها صغير مثلها ، أم أنها - لخبث في طبعها - ترفض أن تنال وجبتها الكاملة من زهرة واحدة ، مفضلة أن تملأ بطنها من عشرين زهرة في عشرين حديقة ؟ ؟

وتذكرت كوب الشاي فمددت نحوه بدأ تعودت على منظر عروقها النافرة ، محاولاً أن أتجاهل ما بدأ يشوبها من رعدة خفيفة في العهد الأخير . ولذلك رحبت بانكسار اذن الكوب الخزف البني ، لكي أقبض عليه بجماع يدي بدلاً من أن أمسكه باصبعين أو ثلاث فترداد

الرعدة وضوحاً . وكان الشاي لذيذاً حقاً بتلك النكهة الإضافية من نور الضحى ، حيث حسوت منه على مهل على الكرسي القش الأصفر العتيق .



## الفصل الثاني

١ هل يحتاج جمعة إلى حجاب ؟ - طائر مهاجر في مطابخ لندن -  
ساقية صدئة اسمها شحانة - قيدو أو صوت سيده ، الكلب النجس  
المتبوذ .





فخطر لي أن أقول لها :

- إذا كنتي اتني ست يبقى هو راجل !

لكنني لم أفعل طبعاً ، فليس كل ما يخطر للحرء يقوله لاسيما إذا كان صحيحاً .

مشافلة سارت أمينة في الشرفة ، متسائلة لكي توزع على ساقها أوجاع الروماتزم بالعدل . نزلت السلام الأربع المؤدية إلى الحديقة وعبرت الممشى الرملي الصغير ، قتلت بالضرورة ما قتلت من طابور النمل الشغال هناك طول الوقت .

آخذ في الامتلاء جسم أمينة حتى لتوشك أن تصبح سيدة بديعة ، غزال زمان الرشيق الأسمر ، الذي في أعماق عيونه العسلية ترقص لمسة لليلة من حضرة متهربة . أمونة الحلوة ، أموتي ، وكم من الأسماء دلتها بها أيام زواجنا الأولى .

على الكرسي القش الأخضر أراحت جسمها قائلة :

- الروماتيزم النهار ده عامل عمايله معايا .

نبرة غشنة طرأت على صوتها بعد أن أكملت الستين فلم تحاول أن تداريها . سرحت حيناً ثم فتحت موضوعها المفضل قائلة :

- حمادة اتأخر المرة دي في الجوابات .

- هي الناس في أمريكا فاضية تكتب جوابات ؟

- يكتب ولو سطرين يعطيني عليه . انت قلت لي البلد اللي هو فيها دي اسمها أيه ؟

لا يمكنها أبداً أن تحفظ كلمة ماساشوسيتس .

- جتهم البلا ف أساميه ! ده اسم حد يسميه لبلد ؟ وهو راخر يستاهل اللي يجري له ! قاعد معانا واكل شارب معزز مكرم ، لازم يشحطط

قروش الضوء الراقصة تحت تمارا ما زالت كافية لحصولي على حاجتي من الدفاء ، هنا حيث أجلس على الكرسي القش العتيق الأصفر . وأمامي تحت زهرة كرسي آخر أخضر من نفس الطقم العتيق ، هو المفضل عند أمينة حين تنزل إلى الحديقة ، لأن لونه الأخضر كما تقول من لون الجنة .

في الشرفة برزت أمينة من داخل البيت في فستانها الرمادي ، تتدلى من يدها سبحة طويلة ذات حبات صغيرة سوداء . ما كانت لتتقنع بسبحة أقل من مائة حبة ، أما السبحة ذات الثلاثين حبة فهي تركتها للهواة الذين لم يكتمل إيمانهم .

وكانت قبل ذلك لا تخلع الثوب الأسود حتى أقنعتها على مر الأيام بأن اللون الرمادي لا يقل بلاغة في التعبير عن الحزن وبأسلوب أوفر . وعلى رأسها طرحة الحجاب البيضاء لتخفي شعرها عن عيون الرجال ، مع أن شعرها يوشك أن يصبح أكثر من الطرحة بياضاً !

فقلت لها ذات يوم متهمكماً :

- هي الجنينة فيها رجالة يا أمينة ؟

فقلت بغيط :

- هو جمعة موش راجل ؟



نفسه فآخر الدنيا ؟ ويا ريت بهابدة ، إلا لغاية النهاردة على فيض  
الكريم .

- اصبري عليه شوية ، بكرة يشم نفسه .

كان طبعياً أن يتضاعف تعلقها بحمادة بعد أن حدث ما حدث .  
وفي سبيل تثبيتها عن الهجرة استخدمت كافة الأساليب بما في ذلك  
المرض . لكنها كانت تنفخ في قرية مقطوعة ، إذ قرر الولد أن يهج  
وانتهى الأمر . وقبل أن يقرر عبر الأطلنطي غرباً كتب إليها من لندن  
يقول إنه يكسب عيشه مؤقتاً من غسل الصحون في المطاعم . فكادت  
أمينة تقع من طولها .

- يا ندامتي ! حمادة ابني يغسل الصحون ؟ ده عمره ما مد ايده في  
الحوض . ده كان يعمل القهوة وأنا اللي اغسل له الكنكة !

فطمأنتها إلى أنهم في تلك البلاد يستخدمون الآلة في غسل الصحون  
بدلاً من اليد البشرية ، فلا مناصبة لأن تتخيل ولدها وقد أمسك بليفة  
بريطانية وراح يدعك بها صحناً نجساً بما يحمل من آثار شحم الخنزير .  
فأراحها هذا الكلام نوعاً . وإن ظلت فكرة غسل الصحون في ذاتها  
إهانة عظيمة لا تدري كيف قبلها على نفسه شاب محترم هو ولدها  
ويحمل بكالوريوس التجارة بدرجة جيد .

وصوت مبجوح نادانا من وراء السور النباقي ، صوت جمعة خفير  
الشونة الذي يقول ري حديقتنا وكنسها .

- صباح الخير يا به ، صباح الخير يا حاجة . عندي النهاردة جرجير  
حلو قوي !

- هات لنا حزمتين .

- حاضر يا حاجة .

- وفجل كمان .

- حاضر يا به .

- وشوف لنا كام بيضة عندك .

وكأنما سمعنا الدجاجة المختصة فشرعت تردد تقيق الفرخة التي  
تريد أن تبيض . ومن آخر الشونة يترامى إلينا ذلك الأنين الأبدي  
الخافت ، يكاء شحاتة ابن جمعة ، أشبه شيء بصريير ساقية عتيقة  
صدئة .

نهضت أمينة واختفت وراء البيت ، وعند باب الحديقة الحديدي  
الواطي ظهر جمعة بعد حين ، تائهاً بجسمه المترهل في جلبابه الأبيض  
الفضفاض الذي يتسع لاثني معه . وشارب أسود كثيف يتصدر وجهه  
الأسمر الكروي ، أفرغني أول الأمر حتى أدركت أنه شيء من النوع  
الذي يركبونه الممثلين في الأدوار الهزلية . وبجانبه يسير كلبه المضحك  
بظهره البني الغامق منجرد الشعر ويطنه الصفراء الغامقة ، ويسميه مع  
ذلك فيدو تيمناً بكلاب الناس الطيبين .

دفع جمعة الباب ودخل وأراد فيدو أن يتبعه فتمعه .

- ارجع يا فيدو ارجع ما ترعش منا الحاجة !

لأن الكلب كان ممنوعاً من دخول حديقتنا بأمر أمينة ، لا لأنه قد  
أخطأ في حقنا بصورة ما وإنما لمجرد أنه كلب ، تلك التهمة التي تجعل  
منه - مثل كافة كلاب الدنيا - كائناً نجساً يجب علينا أن نبذنه وتتحاشاه  
ونزجره كلما رأناه .

فخطر لي مرة أن أسألها :

- وكان ربنا يخلقه ليه ؟

فجالت بحزم :



— وكان يخلق العقربة له ؟

فلم أجادلها ، وحرمتنا من أن يكون لنا كلبنا الخاص الذي يحرمتنا  
من المخدوعين من اللصوص . وتيح الكلب احتجاجاً على منعه من  
الدخول ، وكان في صوته بحة مثل صوت جمعة ، فهل كان غريباً  
مني أن أسميه صوت سيده ؟ لكنه ظل في الخارج بالرغم من الباب  
المفتوح ، على الرصيف ارتدى ورفع ساقه لبعضه في بطنه الصفراء  
متصيداً ما يصادفه من حشرة القراد . مزيج عملي من النظافة والغذاء .  
إني أحب جمعة لسبب غير واضح لي تماماً ، وفي الوقت نفسه  
أرثي له . ويدهشني أنه يأخذ نفسه مأخذ الحمار فيعمل لكي يتزوج ويختلف  
ويجلس بالليل لشرب الجوزة ويشرع في إنجاب طفل جديد . وأشياء  
كثيرة تعلمت أن أحبها وأرثي لها ، حيث أجلس على الكرسي القش  
العتيق الأصفر .



### الفصل الثالث

٥ المخفضاء بدون أن تكون خضراء - مجمع للعصافير وأسرة جمعة -  
إسطوانة مشروخة تتأوه - لماذا تكلم جمعة عن البطة الجريحة بضمير  
المذكر ١٢ .





لينة من النبي المحروق تمازج خضرتها الهادئة وتجعلها غير ذات لون  
مؤكد . فهي أحياناً بورتقالية على خضراء ، وهي أحياناً صفراء ، وهي  
أحياناً طوبية متوهجة توشك أن تكون حمراء . وفي حينها للتفرد رفضت  
أن يكون لها أوراق مثل سائر الشجر ، معتمدة في نفسها على تلك  
القصينات الصغيرة التي تتدلى من أغصانها مثلما تتدلى الترابيب من  
كم فستان أخضر على بنت رشيقة مثلها .

لكن أمينة لا تحبها ولا تذكر ذلك .

- موش فاهمة إيه عاجبك فيها ، لا بتطرح ولا بتزهر ولا منها قابضة  
ولا عابدة .

فهي في علاقتها بالنيات تؤمن بمذهب المنفعة ، ولذلك كان تفضيلها  
للنخلة القائمة هناك في آخر الشونة ، الكالحة المائلة بزاوية حادة تجعل  
حياتها مقاومة مستمرة للسقوط . لكنها تثمر وتطعم جمعة وأسرته ، من  
السباطة اليتيمة الحمراء التي تطرحها كل صيف . وهذا إلى جانب  
علاقاتها التاريخية العديدة بالأنبياء والقديسين .

فقلت لأمينة وأنا أشير إلى صديقتي :

- عارفة دي بقى اسمها إيه ؟

قالت متصاعدة :

- إيه يا سيدي ؟

- اسمها ريما .

فقلت ساخرة :

- اسمعني ؟

- شجرة كزورينا ، ح اقول لها يا إيه إلا يا ريما ؟ ؟

فضحكت أمينة ضحكة صغيرة ، وكانت تضحك كثيراً قبل

حتى قروش تمارا الدافئة لا تلزمني في هذا الصباح الذي يوشك  
أن يكون صيفاً . فالشتاء لا يزال يتلكأ لسبب غير مفهوم ، وهي قطعاً  
أكلة خاصة يجهزها لنا على مهله في مطبخه غير المبارك . فجلست في  
الشرفة على الكرسي الفس الأحمر ، ثالث كراسي الطقم العتيق ،  
وذلك بعد أن جمعت ما كان يعلوه كالمعتاد من زهور الياسمين .

بارك الله فيك يا حمادة أينما كنت ، إذ جذب إلى الداخل بعض  
فروع من ياسمينية ، وبشيء من الخيوط والمسامير صنع لنا في الشرفة  
مشروع خضلة ياسمين صغيرة مبهجة . وياسمينية الأم تواصل رحلتها  
الأبدية الذؤوب نحو سطح البيت ، عشرات من الزهور البيضاء تلمع  
فوق خضرتها وترمقني بنظرات أميل إلى الظن بأنها متعاطفة .

وهنا في الشرفة أرى صديقتي الرابعة شبه كاملة ، وراء السور الباقي  
الذي لا يحجب شيئاً منها سوى أسفل جذعها الطويل . فهي صديقتي  
بدون أن تكون شجرتي ، ومنى كانت الملكية من شروط الصداقة ؟  
هي نابتة في الشونة التي نسبها هازلين بأرض عم جمعة ، إذ يتولى حراسة  
ما فيها من أكياس الأسمنت وأسباخ الحديد المملوكة للمقاول صاحب  
الأرض .

طوبلة رشيقة مهندمة على الدوام ، خضراء بدون أن تكون خضراء .



أن يحدث ما حدث ، وقالت :

- ربنا يكملك بعقلك !

وفي آخر الشونة بالمغرب من النحلة يقوم ذلك البناء الحجري الأصفر ، وعشرات من الشقوق في جدرانه حولتها العصافير إلى عشرات من الأعشاش . هناك يخزنون أكياس الأسمنت وأسياخ الحديد وأسرة عم جمعة . ومن هناك ينبعث ذلك الأبن الصدى الذي لا يقطع نهراً أو ليلاً .

وعن أم شحاتة لا أعرف شيئاً إلا بصوتها البدائي الجلف الذي يطلع في الشونة كلما تشاحت مع زوجها جمعة . ومن حسن حظي أنني لا أفهم شيئاً مما تقول ، إذ تنهال الكلمات من فمها أشبه بأكداس الزلط حين تنسكب على الأرض دفعة واحدة من قلاب على ظهر لوري .

وقد كان في البداية يبكي مثلما يبكي سائر الأطفال ، صراخات متشنجة تشجر حيناً ثم تهدأ عندما يزول سببها . ثم تبين أن هذا السبب لا يزول عند شحاتة أبداً ، ومع الجهد والنعب تحول البكاء إلى أنين خافت مستمر مثل خرقة اسطوانة مشروخة علفت إلى الأبد على كلمة آه . ربما كان الجوع على صدر تلك الأنثى العجفاء ، وربما كان المنص أو الإسهال أو قرص الناموس . وهو صوت ألفته ولم يعد يزعجني ، ولربما الفئدة وأزعجني سكوته إذا سكت .

- ما توديه لدكتور يا جمعة ؟

هكذا اقترحت عليه يوماً فقال :

- هو دكتور واحد يا بيه ؟ دنا لفيت به مستشفىات البلد كلها . صلي ع النبي يا بيه .

وأشار نحو البيت الحجري المشقق وقال :

- كله م الولية دي ! بطنها بعيد عنك زفرة ، عمر ما نزل منها عيل سليم !

وعلمت أمينة من بائعة اللبن أنه قد مات الجمعة حتى اليوم طفلان ، ولذلك سمى هذا الأخير شحاتة عسى أن يخزي عنه عيون الحاسدين فيعيش .

- يا ست ! يا مودام ! يا حاجة !

صوت جمعة عند باب الحديقة الذي لا أراه من هنا ، وأجابه صوت أمينة من عند باب المطبخ .

- أدخل يا جمعة ، عاوز حاجة ؟

ولم أسمع رده عليها إذ قرر كلبه أن يسبح معه في نفس اللحظة . قالت أمينة :

- هاته أشوفه .

وقال جمعة .

- امشي يا فيدو ، امشي !

وصوت جدل بينهما عند باب المطبخ لم أميز منه شيئاً ، صوت جمعة المبحوح يحاول أن يرتفع . فيغلب عليه صوت أمينة ويكسفه . ثم سكنا ومرت دقيقة قبل أن يظهر أمامي في المشي الرملي ذلك الكائن الغريب .

هي بطة عادية سوداء مثل كل البط ما في ذلك شك ، ومع ذلك ساورني للفور إحساس قوي بأن فيها شيئاً غير طبيعي . واحتجت إلى لحظات قبل أن اكتشف طبيعة ذلك الشيء ، متثلة في ذلك السرسوب الطويل من الدم الأحمر القاني ، الذي يقطر من عنق البطة ويرسم تحتها على الرمل الأصفر خطاً طويلاً متعرجاً أحمر . بطة عندها نريف ، تفسير



غير معقول . وهي تسير خطوتين وتسقط من فرط ضعفها ، فتنهض  
ثانياً متحاملة على نفسها ، غير مدركة أنها تخاطر آخر خطواتها في  
الحياة . ورأت على الأرض شيئاً أعجيبها فالتقطته بمنقارها ورفعته إلى  
أعلى لتبتلعه غارقاً في دماغها .

وظهر جمعة مقبلاً في المشى فما كاد يرى البطة حتى صاح فرحاً :  
- لقيته يا ست !

فعجبت لماذا يتكلم عن البطة بضمير المذكر حتى قال :  
- ده ذكر بط كت الست موصياني عليه !

وانقض عليه فالتقطه ممكاً إياه من ساقيه ورأسه يتلوى نحو الأرض ،  
والرسوب الأحمر قد تحول إلى سيل غزير من الدماء .

قلت له مستغراً :  
- هي مذبوحة ؟

فقال مصححاً :  
- أبوه يا بيه ، مذبوح .

- أنت اللي دابحه ؟  
- أمال يا بيه .

- طب مش تدبحه زي الناس ؟ ده لف الجنية كلها على رجله !  
فقال متباهياً :

- أحسن يا بيه ، عشان دمه يتصفى كويس !  
وابتعد بالقتيل وهو يقول :

- ألف هنا وشفا يا بيه !

فتمنيت من قلبي أن أخلع الحذاء وأقصد إليه فأضربه ، لكنها

بالطبع ظلت مجرد أمية . فما ذنب جمعة فيما فعل ، وهل أتى شيئاً غير  
ما رأى قومه يفعلون ؟

أما عني أنا فلا أظن أنني سأضع في فمي قطعة واحدة من هذا الذكر  
التمس ، اللهم إلا إذا اعترتني حالة مؤسفة من ضعف الذاكرة ، وما  
أكثر ما تعتريني تلك الحالات في العهد الأخير .

ودخلت أمية إلى الشرفة وهي تجفف يدها بقوطة ونقول في انتصار :  
- ذكر بط يسوي اثنين جنيه ، خدته منه بجنيه بس !

فتفكرت في الأمر لحظة ثم قلت :  
- أحسن ، عشان دمه يتصفى كويس !

فقلت أمية غير فاهمة :  
- يعني إيه ؟

فقلت في ابجاز حاسم :  
- نكتة غير موفقة .



## الفصل الرابع

« هل يتنافى الحزن مع الزهور ؟ - نوع خاص من الحب - قضيحة  
بين البساتين - لست أحسن من القراشة البيضاء - وفرح الولد المفقود » .





## فضيحة في عالم الحقائق

- ما تزرع الجنة ذي يا بيه بدل ما هي قرعة كدة ؟  
هكذا قال لي جمعة يوماً وهو حديث عهد بالعمل في حديقتنا ،  
قلت له متهرباً :  
- ما هي مزرعة آهه .  
- ده سجر يا بيه . أنا قصدي تزرعها ورد وزهورات وحاجات فرايجي  
كده ، لجل ما تضحك كده وتبقى حلوة .  
لم يخطر له أن هذا بالذات هو السر وراء تلك الحديقة العابسة ،  
أن أمينة لا تريد لها أن تضحك أو تكون حلوة ، وكيف يجوز لها أن  
تفعل بعد أن حدث ما حدث ؟  
قلت لجمعة مداعباً :  
- ما تزرع الزهورات ذي عندك أنت ؟  
- احنا بتوع زهورات يا بيه ؟ كفاية علينا حبة الفجل والجرجير أجيب  
الفاس وآجي بكرة ؟  
- لا يا جمعة ، قدام شوية .  
وغامرت بعرض الفكرة على أمينة في إحدى لحظاتها الصافية ،  
مؤكداً لها أن هذا الإصرار على الحزن وعلى تحريم ما أحل الله من

- مباهج الحياة الصغيرة ما هو إلا رفض خفي لإرادة الله واعتراض  
صامت على مشيئته .  
- وعلى كل حال اعرضي الحكاية على دار الأفتا .  
الشيخة مفيدة صاحبة الدرس الديني الأسبوعي الذي تحضره أمينة  
منذ سنوات ، بارك الله فيها من شيخة متفتحة العقل واسعة الأفق ،  
وافقتني تماماً على رأيي في حزن أمينة الأبدي ، وإن كانت قد خالفتني  
قبل ذلك في مسألة الكلب صوت سيده فكتبت عليه النجاسة الأبدية .  
ابتسامة جمعة وصلت إلى أذنيه حين صرحت له بأن يزرع الحديقة ،  
مشروطاً عليه أن يفعل ذلك في أضيق حدود ممكنة . وكان من المتع  
أن أقرب جمعة وهو يعمل في الحديقة ، الأرض يعرقها بالفأس ليكشف  
للسمس أحشاءها السوداء الظامئة للضوء . أو بالشقوف يداعبها في رفق  
كأنه يخشى أن يجرحها ، ويده التي تغوص في التربة الميتة السوداء كأنما  
تغوص في عجيبة سقيت لبناً وعسلًا .  
إنه يحب الأرض من قلب فلاح أصيل سحقته الزمن خفيراً لشكائير  
الأمحت . أنا شخصياً قد أمشي على الأرض عمراً كاملاً دون أن أحبها  
بهذه الصورة ، وقد أبني عليها قصراً أو هرمًا أو أحقر لنفسي فيها قبراً ،  
وشيء من ذلك لن يجعلني أحبها ذلك النوع من الحب .  
وكانت بالطبع فضيحة بجلال في دنيا فلاحه الباتين ، تلك  
الحديقة التي زرعها جمعة بمفايس أولئك الذين يستعملون كلمات  
مثل التبوليب والجلادبوليس وغيرها من الزهور ذات الأصل الكريم .  
حوض من زهور البانسيه ذات المائة لون ، حيث يقف القرد الوقح بجانب  
الأرنب المذعور ، بجانب البيت الخارجية لتوها من عند الكوافير ،  
وغير ذلك من الأشكال الجديدة التي يكتشفها الإنسان كل يوم إذا



كان من هواة ذلك . وحوض آخر يحوي تشكيلة فاقعة الألوان من درجات الأحمر ، أشبه شيء بفساتين البنات الذاهبات إلى حديقة الحيوان صباح يوم العيد .

غير أن هذا لم يكن ليزعجني ، وكيف يزعج رجلاً يعتبر نفسه من غلاة المؤمنين بالاشتراكية النباتية ؟ إن كل الزهور جميلة في نظري طالما أدخلت البهجة على نفسي ، أما الأصل الكريم فلتتركه لمن يحتاج إليه . وكيف لا أحب هذا القرد وهذا الأرنب ، والرجل الصيني الأصفر ذا الشارب الأسود الطويل الذي اكتشفت وجوده منذ أيام ؟ إن الفراشة الصغيرة البيضاء تحب هذه الزهور وتهاقت عليها ، فمن أنا حتى أدعي أنني أفهم في الزهور أكثر من الفراشة الصغيرة البيضاء ؟

قال لي جمعة وهو يشير مزهواً إلى ما صنعت يداه :

— شايف يا بيه ؟ بالذمة موش بقت شربات ؟

— بأنفاسك يا جمعة !

— ازرع لك حوض بقى دايرن داير ؟

— اسأل الست .

وبعد أيام رأيته عاكفاً على عرق الأرض حول محيط النجيلة الخضراء . وقالت أمية متحاشية أن تنظر إلي :

— أقول لك حاجة ولا تصحكش ؟

— واضحك ليه ؟

— أنت موش عارف نفسك ؟

— موش ح اضحك .

فقلت في خجل :

— محمد جاني في الحلم وقال لي انه فرحان بزرع الجنة .

فددت يدي لكي أربت في حنان على ركبتيها العجوز ، هنا حيث جلست أمامي على الكرسي القش الأخضر الذي بلون الجنة .

وقلت لها مخلصاً :

— ربنا يفرحكو دائماً .

وضغطت يرفق على ركبتيها فقالت متوجعة بشبهة دلع قديم :

— أي ، الروماتزم !



## الفصل الخامس

« بردان وراء الزجاج المغلق - ربة السحر والأوييك - لماذا يتخاصم  
 هدهد وعصفور ؟ - هل هو عصفور فاسق ؟ فضيحة الطائر المبروك -  
 ربة السحر تنتصر » -





كما هو مفروض ، ومتخيلة أنها لو أطالت الحلقة في المدفأة فقد  
تشعلها بقوة سحرها الخفي ، هي الإلهة بأسيت روح إيزيس ربة  
السحر . فهي لا تعرف أن الجاز قد أصبح وقوداً عزيزاً ، وأن العقلاء  
من الناس قد كفوا عن إشعال المدافئ صباحاً . وتلك بالطبع كلمة  
لا تعني عندها شيئاً على الإطلاق ، كلمة أولئك .

الفائزة الحقيقية اليوم هي أمية ، بوقصها المتعة أمام شعلات البوتاجاز  
الساخنة وما فوقها من حلال تشكشك وتعلأ الجو بخاراً دافئاً شهياً . وأنه  
ليكنهني أن أستمع من بعيد إلى ذلك الصوت المطرب لكي امتلئ دفناً ،  
صوت الكبشة وهي تتخط على جوانب حلة ساخنة .

فوقفت وراء الزجاج المغلق أفرك كفي وأنفخ فيهما وألعن أسلاف  
الشتاء . وشيء هبط فجأة أمامي على سور الشرفة ، شيء حي تغطيه  
ألوان مزركشة بدرجات من البني والبيج الغامق . على رأسه تاج فخور  
أحمر ، وأمامه على سبيل المقار سيف طويل مدبب . هدهد جميل  
علموني منذ صباي أن أحبه وأتفامل به وأتمنى شيئاً من البركات التي  
تتناثر من جناحيه حين يطير .

ففرحت به إذ اختصر شرقي بشرف الهبوط فيها ، وعنت عليه  
حين بسط جناحيه بسرعة وطار . عبر السور النياتي طار واجتاز الشونة  
كلها ، حتى وصل إلى البيت الحجري المشقق فحط هناك على سطحه  
فوق جمعة وأسرته والعصافير .

مدى لحظة شغلت عنه بالتطلع إلى السماء التي بدأت تكتسب  
ذلك اللون الأسود القبيح ، ثم ردتني إليه تلك الضجة التي انبعثت فجأة  
من ناحيته ، حيث دوامة كبيرة من العصافير تحلق فوق البناء الحجري  
في دوائر محسومة وهي تصرخ كلها في وقت واحد . وفي مركز تلك

إذا جاء الشتاء فليس الربيع يبعيد ، كلمة فارغة قالها الشاعر  
الإنجليزي البردان ليصبر نفسه على بلواه ، إذ هو أجدر الناس بأن يعرف  
أنه إذا جاء الشتاء فقد جاء ، وأن دونه والربيع شهوراً طويلة من الهم  
البارد والعذاب الثلج .

ولكم فرحت عندما رأيته يؤجل وصوله بتلك الصورة ، بل وتحميت  
في لحظة جنون أنه ربما يكون قد ألغى حضوره أصلاً ، متأثراً بدعوة  
حارة من قلبي الطاهر ! لكن الشتاء هو الشتاء ، كلمة باردة يجب أن  
نسمعها من الزمن كلما جان وقتها المحتوم .

إذ فتحت باب الشرفة ذات صباح فكأنني فتحت عن ثلاجة كونية  
كبيرة تهدد بالتجمد كل ما تلامسه . فأقفلته بسرعة وحييت الصديقات  
بالإشارة من وراء الزجاج ، ما من واحدة منهن ردت عليّ السلام .  
عابسات كلهن كالحبات يحملن هموم الدنيا بأسرها . وبمنظرة إلى  
السماء عرفت السبب ، السماء الرمادية الكثيرة المنذرة بيوم شتوي مشوم .  
ومع ذلك فالهواء ساكن تماماً ، ما من ورقة واحدة تهتز في غصن واحد  
من آلاف الأغصان الجامدة في الأشجار حولي . الهدوء الثلج المريب ،  
كانها لحظات العد التنازلي قبل انفجار المصيبة التي أعدتها لنا السماء .  
في بلاهة جلست موني أمام المدفأة ، مندهشة لماذا لا تشرع بالدفع



الدوامة رأيت جسماً مزركشاً هو الهدهد ، وكان قد انتقل من سطح البيت الحجري إلى جداره المشقق حيث تعلق بمخالبه بأحد شقوق العصافير وهو يضرب بجناحيه ضربات سريعة لكي يتفادى السقوط ، ومنقاره الطويل المدبب قد غاص في أعماق الشق وراح ينشبه بهدف واضح لا ليس فيه هو أن يدمر ذلك العش تدميراً .

لماذا اختار هذا العش بالذات لا أدري ، ولماذا تقع العداوة بين هدهد وعصفور لا أدري ، فليس بيدي سوى أن أقف عاجزاً أتفرج على ذلك المنظر المأساوي . أشياء كثيرة يخرجها الهدهد من العش وينثرها حوله في الهواء ، ميزت فيها ريشاً للطيور وأوراقاً للشجر وأغصاناً صغيرة . وفي دماغه المحمومة تخيلت داخل العش مجموعة من البيض لم تنفقس بعد ، أو أميرة من صغار العصافير ممدودة الأعناق منفرجة المناقير تنتظر ما سوف تدسه فيها أمها حين تعود .

كان واضحاً من حماسة الهدهد أنه يجد في عمله متعة كبيرة ، غامضة إلا على جنس الهداهد . أما أنا فسأظل إلى الأبد جاهلاً إن كان هذا الهدهد قد قرر - في نوبة بشرية طارئة - أن يدمر ذلك العش لمجرد متعة التدمير ، أم أنه يتناول وجبة الإفطار العادية مثلما يفعل كل يوم وأنا لا أدري .

وأخيراً تعب الهدهد أو شبع أو زهق أو لا أدري ماذا ، فضرب بجناحيه ضربة رفعته فوق سطح البناء الحجري . هناك وقف يتلفت حوله في خيلاء ، تاجه يرقص فوق رأسه في زهو الظافرين ، وسيفه ممدود أمامه يقول هل من مبارز ؟ والعصافير ما زالت في دوامتها المجنونة حوله ، خائفة من أن يكون الوحش في فترة من الراحة قبل أن ينقض على عش جديد .

وفجأة قصف الرعد بشدة ، مرة ثم مرتين ثم ثلاث مرات ، وسيفه لمع في السماء واخترق السحب الكثيفة السوداء ، فانفتحت السماء عن الدش الكوني المرتقب الذي راح يغرق كل شيء . رينا وزهيرة وتامارا والكروسي القش الأصفر العتيق ، والآخر الأخضر الذي بلون الجنة . والفروود الضاحكة والأطفال المذعورة وفساتين البنات الحمراء والبهمبي ، والحمد لله أن الفراشة البيضاء كانت أعقل من أن تخرج في مثل هذا الجو .

وعن السطح الحجري طار الهدهد مذعوراً تتناثر البركات من جناحيه مبتلة نوعاً . والعصافير عادت مسرعة إلى أعشاشها ، أسفت لأنه ليس لها أبواب لتحتوي وراءها من شرور الحياة .

فيا ليت السماء يكرت قليلاً بهذا المطر ، إذن لربما أمكنها أن تنقذ ذلك العش التعس من التدمير . ومع ذلك من يدري ، اليس من الممكن أن يكون صاحب ذلك العش عصفوراً فاسقاً منحلاً يستحق ما حل به من العقاب ليكون عبرة لمن يعتبر من بني عصفور ؟

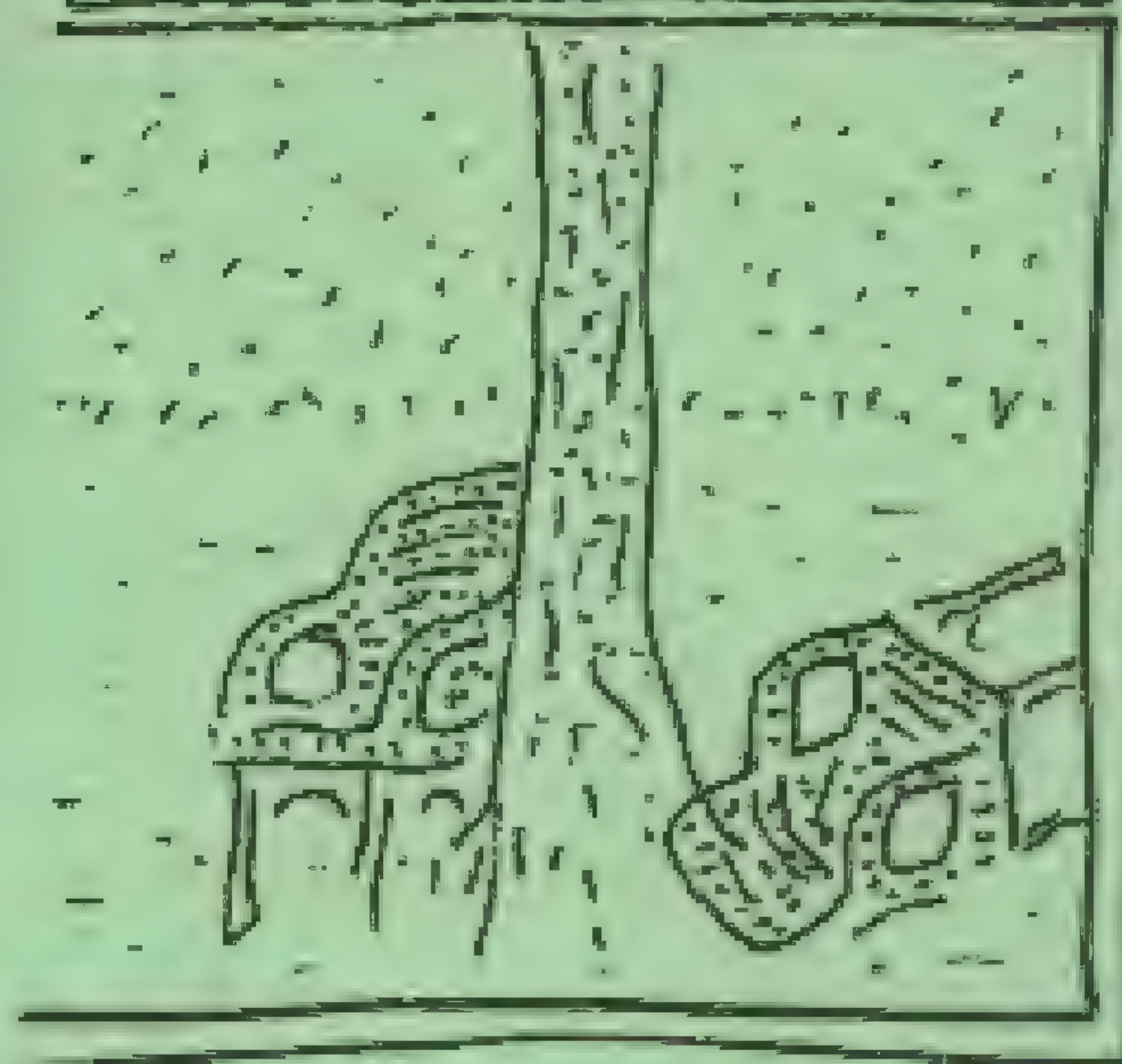
وأدركت بعد فوات الأوان كيف فاني أن أنادي آمينة لشهد فضيحة ذلك الهدهد السفاح ، لعلمي بأنها سوف تكذبني عندما تسمع القصة مني . ستقول أن جريمة كهذه لا يمكن أن يرتكبها ذلك الطائر المبروك صديق صيدنا سليمان ، وأني أنا الذي بدأت أتوهم أشياء لا حقيقة لها من طول معاشرتي للشجر والحيوان على الكروسي الأصفر العتيق .

وسيل من المطر بدأ يضرب الزجاج بشدة حتى أوشك أن يحجب الرؤية تماماً ، فكرهت المنظر كله وابتعدت نحو المدفأة حيث ما زالت موني صابرة تنتظر . نعم إن العقلاء لا يوقدون المدافئ صباحاً ، لكن من هو ذلك اللوح الذي يريد أن يحترقني بالعافية في زمرة العقلاء ؟



## الفصل السادس

على السطح النبي العتيق - الثلج أفل الأبراب - وجاء من أقصى  
سيناء - الولد والفحمة سوداء - حب وسط العاصفة ٥



سنة  
سنة  
سنة  
سنة  
سنة

سنة  
سنة  
سنة



شيئاً مستغرباً من آلهة سابقة . فوضعت يدي على ظهرها أُمسح بها على  
قطيفته السوداء ، ومددت أصبعاً أتخس به ذبذبات القراءة أسفل عنقها  
الأيض الذي تمدد في استمتاع .

- كررررر !

ارتفع صوتها بالقراءة فسمعت أمينة وتصعبت .

- يا كبلي يا بني ! شوف إحنا قاعدين دقيتين إزاي ، وهو يا ضنايا

موش عارف يفتح الباب من كتر الثلج !

معلومة كتبها لها حمادة في رسالته الأخيرة ، وأشعر أن شيئاً هاماً

ينقصها لكي تدخل في الدماغ . واسترسلت أمينة وهي تلتقط بكرة من

صوف التريكو الأزرق :

- آديني ح اعمل له بلوفر حلو يدفيه !

- هي قلة بلوفرات في أمريكا ؟

- شغل ايد الأم يدفيه أكثر !

- حسرة غ اليتامي اللي زينا !

وفجأة سطعت الفكرة في دماغها فقلت لها :

- عمرك شفتي باب يفتح لبرة ؟

فقلت غير قاهمة !

- يعني أيه ؟

- يعني أما بتيجي تفتحي باب ، بتشديه لجوة ولا ترقيه لبرة ؟

فتمكرت لحظة ثم قالت :

- باشده لجوة !

فقلت لها في انتصار وأنا أطرق باصبعين :

- يبقى لازم الثلج في أمريكا دخل جوة البيوت !

العاصفة ترمجر في الخارج في الظلام الثلج ، غاضبة معرودة وسط  
الكائنات الخضراء الوديمة الصامدة . عواء للريح لا ينقطع ، وصرير  
أليم للأجزاء الطرية من جدوع الشجر ، وفي ليلة كهذه قد تنكسر أية  
شجرة وتهوي دون أن يشعر بها أحد ، حتى الطويلة الرشيقة التي أشك  
في أنها ما زالت مهندمة . والدش الكوني ما يرح مفتوحاً منذ ساعات ،  
كأن أحداً قد فتحه لستحم ونسي أن يقفله .

فجلست في الصلاة على يسر المدفأة المشتعلة ، على القوئي اللبني  
الذي كان ذات يوم أزرق ، وقدماي على ما تبقى من وير في البساط  
النبيتي العتيق . وأمينة على مقعد مماثل عن يسار المدفأة . تتلاقى أصابعنا  
الباحثة عن الدفء أمام فتحاتها حيث العهد الساخن الذي فيه شفاء  
لأصابعنا العجوز المتجمدة . له حق أن يكذبنا من تقول له أننا كنا في  
ذات يوم نستبط الدفء بالجهود الذاتية من جوف هذين الجسدين .  
وفجأة قفز إلى حجري جسم أسود على أبيض ، موتي التي كانت  
نائمة تحلم عند قدمي . حجري أحسن لأنه أقرب إلى فتحات المدفأة  
الساخنة ، والروب الصوف الرمادي يشع دفئاً إضافياً تحتها ، فتكورت  
هناك وبدأت تقرأ . - كرررررر !

قراءات غامضة تؤكد أمينة أنها ذات طابع ديني ، وهذا ليس



فيبدو أنها كانت قد فكرت في الأمر بمفردها ولحسابها الخاص .  
بدليل أنها قالت بسرعة شديدة .

- لازم أبوابهم كده !

- تفتح لبرة ؟

- آه ، اللي بسمي بلده ماسا كوفتش يعمل أبوابها تفتح لبرة !

فأحببت منظر الغيظ الكاذب على وجهها القسحي الذي بدأت تغزوه التجاعيد ، ولمسة الخضرة القديمة ما زالت تتلاعب في عينيها وإن فقدت بريقها القديم . وما كان أحد ليوم أمينة أو يطالبها بأن تظل هي أمينة القديمة بعد ذلك الذي حدث . فلو أنهم قالوا لها إنه قد استشهد لكان ذلك أرحم بها من تلك الكلمة الجافة المقتضية الباردة : مفقود . قالوها وسكتوا : عملوا ما عليهم وانصرفوا . ما من أحد شرح لها كيف تحول ولدها الأكبر من موجود إلى مفقود ، كيف تاه وليس بين أولاد الحلال من يرشد إليه . فكانت أسابيع مريرة في المستشفى ، وفي عالم غير عالمنا تعيش أمينة . فلعلها وجدت هناك ولدها التائه وخشيت أن تتركه فيتوه منها ثانياً . في عالم وحدها عاشت أمينة أسبوعاً وراء أسبوع ، عالم طالما تاه زواره إلى الأبد في دروبه الملتوية الباردة . وجاء من أقصى سيناء رجل بحري ، فك ما تبقى من أضرار الجائحة الكاكي وارتدى قاتلاً وهو يلتهث :

- ماحنا نصنا مفقودين يا بيه ، حد غارف حد من حد ؟ دي القبلة من دول تترل ع اللوري باللي فيه تخليهم فحمة سودة !

فحمة سوداء ولدي ، صورة أفرعتني لزمن طويل إلى درجة الاذلال ، والحمد لله أنها لم تصل إلى أدنى أمينة في عالمها الآخر . لكنها كانت

أرحم عندي بكثير من صورة جنة ملقاة في العراء والوحوش تنهش لحمها في الوادي المقدس .

وعادت أمينة بعد زمن إلى عالمنا ، لكنها لم تكن - وما كانت يمكن أن تكون - نفس أمينة التي ذهبت . أشياء منها بقيت هناك ولم تعد ، وأشياء عادت بلون مختلف ، مثل شعرها الذي كان أسود فصار أبيض ، وشيئاً فشيئاً بدأت تتعلم الابتسام من جديد .

ومن فوق بكرة الصوف الزرقاء أتاني صوتها يقول :

- مش عارفة كان يحرق لي أيه لو حمادة راخر جري له حاجة .

سؤال سمعته منها أكثر من مرة بعد أن هاجر حمادة ، تطرحه بأحسن نبرة من نبرات صوتها . ولحسن الحظ أنني لم أكن مضطراً إلى الإجابة ، لأن السؤال كان على الدوام موجهاً منها إلى نفسها . من أعناقها تساءل ولا تنتظر أن تسمع الجواب ، وإذا كانت هي قد أجابت نفسها فليست أدري ماذا قالت .

من فوق خيوط التريكو تأملتها بحب ورثاء وهي لا ترائي ، ثم ملت نحوها قائلاً : - أحبك يا أمونة .

فاختلست نحوي نظرة مستغربة ثم ابتسمت وقالت :

- حبتك العافية !

عواصف كثيرة هبت على حياتنا فقاومناها ، وحرائق كثيرة شبت فأطفأناها ، ثم حدث الذي حدث فجرف أمامه كل شيء .

كم يزعجني ذلك الصرير الأليم في جذوع الشجر أمام العاصفة المجنونة . ولبمون كثير لا يد أنه قد سقط قبل الأوان من غصون رهيرة . والأرض غمرت بها الأوحال حول الكرسي الأصفر العتيق ، وفي الأوحال



وربقات بيضاء سقطت من تمارا وكانت معطرة .

- كروزرور !

فكبشت الشعر في ظهر موئي لا شعورياً ومسحت عليه في عكس  
المجاهة الصحيح ، نزوة كثيراً ما تعترى الإنسان وهو يتحسس ظهور  
القطط . فرامت موئي ( حيث نامت ) معلقة عن غضبها ، بل ونفخت  
في لحظة التماس بين الحلم والحقيقة في دماغها السوداء .



## الفصل السابع

الكروسي عاوز مسمار - وطلعت الشمس على إيزيس - موني  
تسهم في بناء الهرم - الالهة التي سقطت - إنقاذ في آخر لحظة .





عليها بعض الرمل لكي تحف الأرض بسرعة .

وهذا الكرسي محتاج إلى الإصلاح السريع وإلا فسوف أندم ،  
عندما تنكسر ساقه الخلفية فجأة فأجدي مستلقياً به على النجيلة الخضراء  
التي لا تزال مبللة . فأرجو إذا سقطت أن لا تكون أمية موجودة ولا  
جمعة ولا حتى موني ، أما الأشجار فلا بأس بالسقوط أمامها لأنها  
لا تضحك ، أو على الأقل تعرف كيف تداري ضحكها .

وموني هي الأخرى سعيدة بالشمس التي طلعت بعد غياب ، تروح  
وتجبيء هنا وهناك في نشاط ظاريء . بل إنها الضقت بطنها بالأرض  
مرة وقضت لتعلق بجذع زهرة ، هاربة على سبيل التسلية من خطر  
لا وجود له .

على النجيلة الخضراء سارت حتى وصلت إلى رقعة من الأرض  
خفت حشائشها ، فجلست فيها وراحت تنظر إلى باهتمام كأنها تراقب  
للمرة الأولى . على مؤخرتها جلست ولت حولها ذيلها الأسود ، مرفوعة  
الرأس خضراء العينين تأملني . وذراعاها قائمان أمامها مثل عمودين  
من الجرانيت الأسود على باب معبد قديم ، صدرها وحده هو الأبيض  
وجزء من بطنها وكان المعبد مضاء من الداخل .

وقورة جادة متكبرة ، مستعدة لتلقي فروض العبادة في أي وقت  
يختارده العباد . خوفاً العظيم نفسه أوشك أن يفلس وسط قراعة المقاولين  
بناة الهرم ، فقال له الكهنة أن أحداً لن يفقه من ورطته إلا الآلهة المقطة  
باسيت المعبودة شرق الدلتا بالقرب من زقازيق اليوم . فأمر خوفاً بمعبد  
كبير يقام لها هناك ، وفيه تقدم أطيب القرابين من فئران سمينة  
وعصافير . وحيث أن خوفاً قد أقبل من عشرته وأكمل بناء الهرم ،  
أفليس من الممكن أن تكون الخبيثة باسميت باتعة السر حقا ؟

سجن داخل البيت لمدة يومين ، من وراء الزجاج أرى تمارا وزهيرة  
تقاومان العاصفة بنفس البطولة ، والنجيلة تحنهما مغطاة بأوراقهما السايفة ،  
التي حولت الكرسي القش الأصفر إلى أخضر مثل صاحبه الآخر بلون  
الجنة . فأترك باب الشرقة وأذهب لأنها لك بجانب المدفأة على الكرسي  
النبي الذي كان أزرق ، ورائحة المطبخ تغمر الصالة كثيفة مركزة تكاد  
تصل بالإنسان إلى حد الشبع . وأحياناً تدخل أمية فتجلس صامتة  
لشتغل سطرّاً في البلوفر الأزرق ، وأذننها مرهفة إلى المطبخ في انتظار  
صوت لحلة تشكك فتترك الخيوط وتقوم بسرعة .

فالحمد لله أنها غضبة قصيرة الأمد ، غضبة الشتاء المصري على  
أبناء وادي النيل . مثل غضبة أب عصبي على أولاده ، صباح وغبط  
وشخط ونظر ، وصقعة هنا وبوتة هناك ، ثم لا يلبث الجو أن يروق  
ويصفو ، وعلى الأرض الخضراء تسطع دافئة كعهددها شمس السلام .  
هكذا وجدتني مرة أخرى حراً طليقاً في الحديقة ، أنظف الكرسي  
الأصفر العتيق الذي غسلته المياه فصار أكثر إصفراً . ومن تحت  
تمارا جذبت ووضعت في الشمس الصريحة العارية ، الساخنة المقدمة  
التي تذيب في العروق اليابسة ما تجمد خلال هذين اليومين . وشكراً  
لجمعة الذي نظف النجيلة مما عليها من الأوراق الذابلة الموحلة ، ورش



هي تنظر في عيني بقوة ، من الأعماق القاسية لعبونها الخضراء .  
الشر واضح هناك لا يمكنها أن تداريه ، حاقدة فيما يبدو على أهل هذا  
الزمن الذين حولوها من آلهة تقدم لها القرابين إلى حيوان يلقي إليه  
بالفتات . نظراتها تتكلم وأوشك أن أسمع صوتها يقول لي :

- اسمع يا أنت ! لا مانع من التظاهر فنحن لن نخسر شيئاً ، لكنك  
تعلم جيداً أنني أكرهك ! نعم أنا أسمع في ساقك في بعض الأحيان  
مظهرة حني ، فإذا تمت على حجبك قرأت لك بعض القراءات أعرف  
أنك تحبها لكن هذه كلها أشياء من متطلبات المهنة ليس إلا . فأنت  
وقومك قد غرستم في نفسي طبيعة الملقى والنفاق ، بعد أن قضيت آلاف  
السنين تتولون أنتم تملقي ونفقاقي . وأنا الآلهة باسميت روح إيزيس وربة  
السحر لا أنسى بسهولة ، وسوف أسترذ ذات يوم مجدي المفقود وحيث  
سوف تعرفون معنى الثأر حين يكون !

يمثل هذه الكلمات المسمومة لا بد أنها ألقت الرعب في قلوب  
أجدادي المرهفة فعبدها ليتقوا شرها ، الكلمات التي تتدفق مثل حمم  
البركان من أعماق عبونها الشريرة الخضراء .

ومن خلفها أقبل قط غريب يتحجب ، ولا بد أنه واحد من أحفاد  
أحفادها الذين يصلون الحنة كلها . قط باهت الخضرة مستطيل الجسم  
مملوط كأنه فردة شراب نحشاها العيال قطناً . شيئاً فشيئاً يقترب منها  
حتى صارت رأسه لصق مؤخرتها فانتبهت فجأة على أنفاسه الساخنة .  
وبسرعة البرق استدارت نحوه ولطشته قلماً يهد نمرأً مخططاً أو فهذا  
أرقط ، فانتطلق بحري غير نظام ولا وقار مثلما يحدث في بعض الأحيان  
في دنيا البشر ، في لحظة عفة زائدة عند أنثى شرمة في أوتوبيس مزدحم .  
وابتعدت موني نحو الشرفة في هيئة تأفف ، قرفانة من هذا المجتمع

الذي لا يتيح للأنثى العفيفة لحظة تنامها وهي آمنة على شرفها .  
وأسفل السور النبائي سمعت خرقشة مألوفة ، ونظرت لأواجه العينين  
السوداوين الجاحظتين لضفدوع الذي قال لي متسائلاً :

- آووو !

فتلفت حولي قبل أن أجيبه قائلاً على سبيل المجاملة لكي لا أكشفه :

- آووو !

فبدأ عليه أو عليها الرضاء ، وقفز قفزة أدخلته إلى الشوكة . وتذكرت  
ما قرأت من أن الضفادع قد صارت من الأكلات المفضلة في مطاعم  
أوروبا الراقية ، أي أنها أكلة خاصة بالصفوة من الناس . وقد عرفت  
من واحداً يعرف واحداً من تلك الصفوة أن طعمها مزيج من طعم  
السمك والأرناب ، وهو شيء غير مستغرب من كائن برمائي يجمع  
بين طبائع سكان الماء وسكان اليابسة . واقشعر بدني وأنا أتخيل نفسي  
أمصص الفخذ الرقيق الذي يقفز تلك القفزات اللطيفة لذلك الكائن  
الحيوب .

والحمام الشمسي الساخن المقدس قد زاد من قداسه أكثر مما يلزمي ،  
أذاب ما تجمد في العروق وأوشك أن يذيب العروق نفسها ، فخير لي  
أن أنتقل تحت قروش تمارا الرقيقة المتراقصة . وهناك تحت تمارا رفعت  
ذراعي ومددت ساقي لأتمطى ، فإذا بي أفاجأ بنفسي وأنا أميل إلى الخلف  
وأشرع في رحلة مؤكدة نحو الأرض ، حيث جلست على الكرسي القش  
العتيق الأصفر ، فما أنقذني من مصيري الأليم إلا جذع صديقتي تمارا ،  
الذي وضع نفسه في اللحظة المناسبة في متناول يدي لكي أتعلق به وأنجو  
من تلك السقطة المهينة على أرض الوطن .

فجلست حيناً ألهث وأستعيد هدوء نفسي وقد زال الخطر ، ثم



التمت نحو تمارا بكل الحب المتوقع وقلت لها :

- مرسى يا روحي ، ألف شكر ، موش عارف أرد جمابلك دي كلها  
إزاي ؟

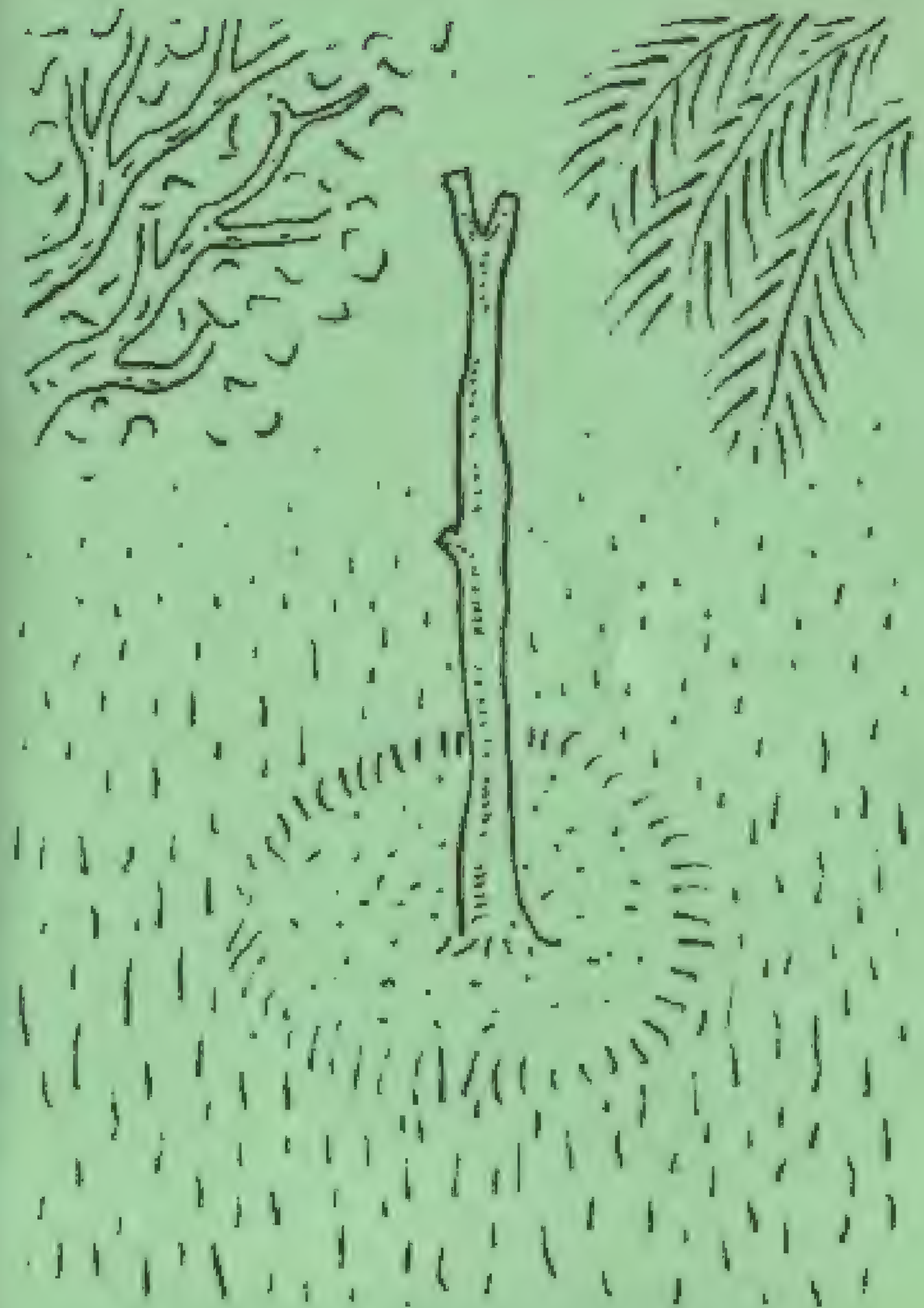
وأحطت جذعها العزيز بذراعي وطبعت عليه قبلة امتنان . ثم  
تلقت حولي لكي أطمئن إلى أن أحداً لا يراني ، عالماً أنه من النادر أن  
يوجد بين الكائنات من يدرك المعنى الحقيقي لشعور الإمتنان .

وبالإضافة إلى ذلك خطرت لي فكرة الملاك الحارس الذي يحبني  
من بعيد لبعيد ، ويسهر على مصالحتي ويرعاني ويلهمني بين حين وآخر  
بفكرة قد تبدو في وقتها غير ذات قيمة وهي في الحقيقة ذات نفع كبير .  
نعم إن الشمس كانت حامية حقاً ، وأنتي كنت سأنقل من نفسي إلى  
حيث أحسني بأغصان تمارا ، لكن ما الذي جعلني أنقل الكرسي الأصفر  
إلى هذه النقطة بالذات ، النقطة الملاصقة لجذع صديقتي حيث يمكنني  
أن أنشئ به عند اللزوم ؟ لو أنني لم أفعل ذلك كيف كان الحال يكون  
وأنا ساقط على النجيلة كالجرذل بالكرسي الأصفر العتيق ؟



## الفصل الثامن

« من أين جاءت الشجرة الغريبة التي عندها كلام ؟ » .





- يعني ايه ؟

- معرقش يا بيه ، هم في المشتل يقولوها كده !

- أنت اللي جايها ؟

- في الحقيقة لا يا بيه !

- أمال جت مين ؟

- لازم كان فيه عقلة قديمة مستخية تحت الأرض وطلعت مع العريق .

دي بكرة تكبر وتبقى ثمرات !

فلست أدري كيف سأعود نفسي على هذا الأسم الغريب أكاليقا .

حتى بعد اختصاره الحتمي إلى ليفا . كما لن أهضم فكرة أنها كانت

مدفونة تحت الأرض وطلعت لوحدها ، فكرة لا تملأ الدماغ تماماً .

لكنني مضطر في الوقت نفسه - ما دام جمعة قد رأى مثلها في المشتل -

إلى استبعاد تلك الفكرة المثيرة عن كونها شجرة من الفضاء الخارجي

وصلت إلينا في نيزك صغير لم يلتفت إليه أحد . وناظرًا إلى النقوش الخضراء

على الورقة البهي عراني شعور غريب بأن هذه الشجرة تريد بلغة ما لا

نعرفها أن تقول لنا شيئاً . نعم ، ليفا تكفيها على سبيل الأسم ، اللهم

إلا إذا كنت مطالباً - ما دمت أكتب ملاحظاتي باللغة العربية - بأن

أواصل أصول التعريب إلى النهاية فأسميها أكاليقا .

في ركن من أركان المشي الجانبي وأنا أتمشى فوجئت بها أمامي ،  
تلك الشجرة الغريبة التي لا أذكر أنني رأيته هناك من قبل . ولا جمعة  
طالبني بشعنها كعادته كلما أحضر شيئاً ولو كان عوداً يابساً ، ولا علمت  
من أمينة أنه طالبها .

شجرة بارتفاع صدري تقريباً ، ذات جذع رفيع وأوراق كبيرة  
مفلطحة تتناقص بشدة مع حجمها المحدود ، ولذلك لا يحمل الغصن  
الواحد أكثر من ورقتين أو ثلاث ورقات . والأوراق نفسها ذات ألوان  
غريبة متسردة على كل ما أعرف عن النبات من حب للنظام والسميرية .  
هذه ورقة زيتية غامقة وتلك فاقعة الخضرة فزدي ، وثالثة مقسومة بجرأة  
غريبة إلى نصفين طوليين أحدهما أخضر عادي والآخر يرتقالي صارخ  
بلون العجور ! وأخرى ذات لون بهي مسخس ، وفي أسفلها علامات  
غريبة باللون الأخضر تشبه شخبطة الرسام بفرشائه على باليتة الألوان .

فقلت لجمعة لما رأيته :

- ايه الشجرة دي يا جمعة ؟

- دي اسمها أكاليقا يا بيه !

- أكايه ؟

- أكاليقا .



## الفصل التاسع

« كلب عنده عشم - رسالة من الحبيب - لماذا هذه الدوخة -  
تذكيرة عبر العالم - الولد الجاهل بصيغة المثني »





## فيدو يتشمس رسالة حمادة والدوخة

السلام الأربعة المؤدية من الشرفة إلى الحديقة ، أليس مضحكاً أنني بدأت أحيل هم نزولها وطلوعها ؟ فلو أن الروماتيزم مرض معد لقلت أنه قد انتقل من ركبة أمينة إلى ركبتي . فإذا ما انتهيت من نزول السلام فيجب علي أن أرفع قدمي إلى أعلى وأنخطو بها أوسع خطواتي ، كي لا أدوس على طابور النمل الشغال هناك طول الوقت . وهما في الحقيقة طابوران لا طابور واحد ، أحدهما يسعى من سلم الشرفة إلى المحيط الحجري الواطي للنجيلة ، والآخر عكس ذلك تماماً . في الطريق تتقابل النملتان فتبادلان ما يشبه القبلة الخاطفة ثم تواصلان مشوارهما الأبدي في صمت . لا أعرف ماذا يتقنون ولا فيما يضيعون وقتهم طول اليوم .

فما كدت أستقر على الكرسي القش الأصفر حتى رأيت في آخر الحديقة منظرأ بدا لي غريباً نوعاً ، وإن كان في الحقيقة ليس غريباً على الإطلاق ، فما وجه الغرابة في كلب نائم يتشمس ؟ لكنه نائم في حديقتي ، فإني مني بظل هذا الغبي جاهلاً بأنه محرم عليه أن يحصل بحاسته إلى أرض حديقتي الطاهرة ؟

هو كان يراني من قبل أن أراه ومع ذلك لم يتحرك ، كل ما فعله حيث رقد ممدود العنق على الخشائش ، هو أن رفع نحوي عيناً سوداء

ملبسة بالشم وهز ذيله عدة مرات . فهل عرف الوجد أن لي فيه رأياً مختلفاً عن رأي أمينة ، وأنه ليس مضطراً إذا رأي أن ينهض مذعوراً ويأخذ في وجهه كالمجنون ؟

وفي عينيهِ السوداءين الدليكتين سمعت صوتاً متوسلاً يقول :

- وحياتك يا بيه سيبي أتشمس هنا حيثين . أنا عارف ان عندنا شمس في الشونة لكن أنا نفسي ف شمسكم ، خصوصاً وسيادتك قاعد معايا كده زني ما نكون عيلة واحدة . وعلى فكرة يا بيه ، الست خرجت من شويه !

فإن أنا حتى أرفض كل هذه التوسلات وأقضي على هذا الكائن التعس بالحرمان من متعة شمس ومجلس ؟

والله يا صوت سيده - هكذا قلت له في عقلي ، إني لأتسنى أن أنهض لكي أحضر لك شيئاً تأكله من المطبخ ، لكنك طبعاً تعرف متاعب الرحلة . طابور النمل الذي يجب أن أتخطاه ثم السلام الأربع ، ثم البحث في المطبخ عن حلة فيها شيء يناسبك وعن كبشة لزوم الغرف ، ووعاء قديم يمكن أن يوضع أمام كائن نجس مثلك . ثم السلام مرة أخرى وطابور النمل ، وأنت تعرف ما قد بدأ عملك بعائنه من آلام الروماتيزم .

فخيل إلي أنني رأيت في عيني نظرة فهم وامتنان ودعاء لي بأن يظل بيتي عامراً أبداً ، وأنه لا يطعم في شيء مني سوى متعة الشمس والمجالسة . وعند باب الحديقة ظهرت أمينة يتدلى من يدها كيس من الورق يحوي البقالة التي خرجت لشرائها ، فانتبه الكلب على صرير الباب وهب مذعوراً يجري ، قاصداً إلى الشجرة التي تسلك منها في السور النباتي .



فلم تبصر أمينة شيئاً منه سوى مؤخرته قبل أن يختفي ، ومع ذلك صاحت به راجرة :

- إمتني جك وجع في بطنك !

ثم لي أنا :

- وسيادتك مضايقه معاك هنا ولا إيه ؟

فلم أجيبها ، وكانت قد وضعت الكيس على الأرض وانحنت تدعيس فيه على شيء ما .

- البوسطجي قابلني في السكة واداه لي ، هو راح فبن ؟

وأخيراً وجدت المظروف الذي تبحث عنه فالتقطته واعتدلت به واقفة بسرعة ، فلما كادت تفعل حتى رأيتها تترنج وتتاوه وتسرع بمحذّب الكرسي الأخضر الذي جلست عليه ، رافعة كلتا يديها لتضغط بهما على جانبي رأسها وهي تعض على شفتها السفلى .

- مالك يا أمينة ؟

فلم تجيب من فورها ، كعادتها عندما تشعر بشيء يؤلمها ، كأنما لتزيد السائل قلقاً عليها . وأخيراً قالت بلهجة تأكيد :

- إذا فضلت كده ح اجيب الدكتور فتحي .

وسكتت من جديد فقلت في إلحاح :

- موش أفهم مالك ؟

- بقى لي كام يوم كل ما أومطي في الأرض أعمل حاجة وآجي قايصة مرة واحدة أحسن بدوخة ، وشواكيش تدق في دماغني .

وانتظرت دقيقة حتى هدأت حالها ثم بدأت تفض المظروف الذي في يدها لتخرج منها رسالة عادية بخط حمادة ، وورقة حمراء غريبة بخط المطبعة ، فقلبت تلك الورقة حيناً بين يديها ثم دفعتها نحوي قائلة :

- شوف دي تطلع ايه .

وطلعت تذكرة طائرة صالحة لرحلة إلى لوس أنجيلوس ذهاباً وإياباً . وفي الرسالة المرفقة تفسير لها من حمادة يقول .. « وهذه تذكرة إلى لوس أنجيلوس أخذتها يسعر رمزي من شركة الطيران التي التحقت بها أخيراً ، فيا حبذا لو حضر بها أحد منكم ليتفرج على أمريكا ، والإقامة على حسابي طبعاً » .

فحمادة إذن ما زال حمادة ، ذلك الجاهل الأزلي يعلم التحور ، الذي يخاطب والديه مستخدماً ضمير الجمع في متكم بدلاً من ضمير المشي في منكما . وخبر آخر في الرسالة أسعدنا بشدة وهو أن الولد قد ترك ماماشوستس إلى كاليفورنيا حيث الشمس الساطعة والنسيم العليل ، وحيث استقر في وظيفة طيبة بإحدى شركات الطيران . وأخيراً استطيع أمينة إذا سألتها أحدهم أين بقيم ولدها في أمريكا أن تقدم له إجابة صحيحة .



## الفصل العاشر

« طفلة عجوز نائمة - اليوم الذي لعب فيه الولد - سر الابتسامة  
المنوعة » .





الذي يتغذى في جوف الظلام على دمائها .

- لازم أقول لماذا !

ووثبت لتطير النبا السعيد إلى جميع الأهل والأحباب . وعلى ضوء الأباجرة التي نسبت أن تطفئها رأيت صورتين للولد الذي ضاع . صورة له وهو طفل يصرخ ويضرب الهواء بثرأعيه ، والأخرى لشاب وسيم يغالب ابتسامة تريد أن تفرض نفسها على الصورة . وذات يوم - رحمة بها من قسوة الذكرى المستمرة - عرضت عليها أن تنقل هاتين الصورتين إلى مكان غير خجرة نوما ، فلمعت عينها بيريق غريب أفرعني ، وقالت بصوت أجش :

- أنت يتخرف تقول أيه ؟ أنا أشيل صور إبراهيم من جني ؟ ده حبيبي أنا ! دول يفضلوا قدام عيني هنا على طول ، لحد ما ربنا يثقل لي وأروح له أنا بنفسي !

وكثيراً ما ضبعتها واقفة أمام الصورتين بلا مناسبة ، أو جالسة على حافة السرير تتأملهما وتشرب بهما وهي تتمتع بالصلوات ، وبين حين وآخر ترفع يدها لمسح عن عينها دموع جفت من زمان . ومعلت أمينة سجلة جافة ومدت يدها لتحسس الأباجرة لتطفئها .

مثل طفلة صغيرة تنام أمينة ، وكل الناس أطفال إذا ناموا . طفلة في الستين من العمر ، فاعرة الفم في تلك البلاهة التي تميز الإنسان إذا انفصل عن عالم الوعي . أرجو أن تكون أحلامها في كاليفورنيا أو حتى في ماساشوسيتس ، أو أي مكان عدا ذلك الذي من أقصاه جاء الرجل يجري . سمعتها قرب الفجر تفتح الثلاجة وتأكل منها بشرهة كما كانت تفعل زمان عقب الكارثة . وبينما هي عائدة كانت تلهث وتكلم نفسها قائلة .

- يحميك يا حمادة ! يحميك يا حمادة ! يحميك ويخليك يا حمادة ! وهنا عاودت النوم نائمة على غير عاداتها أن تطفئ الأباجرة . وذات يوم كانت هذه العجوز المسكينة شابة حلوة شهية مليئة برغبة الحياة ، وبالطفل الذي بقدر له فيما بعد أن يضع . على كنية تمددت منذ سنوات طويلة تقرأ ، وفجأة هتفت بتناديني قائلة :

- تعالي قوام ! إجري أمال ! هات إيدك !

وخطفت يدي لتضعها على نقطة من بطنها قائلة في فرح بالغ :

- حاسس بيه ؟ يلعب ! والنبي يلعب !

الجنين الذي انقضى شهر كامل وهي تنتظر منه أية إشارة تثبت وجوده ، فعلاً أحست به يتقرز ويتلوى تحت يدي ، الكائن الغريب



الذي يتغذى في جوف الظلام على دمائها .

- لازم أقول لماذا !

ووثبت لتطير النبا السعيد إلى جميع الأهل والأحباب ، وعلى صورة الأبا جورة التي نسيت أن تطفئها رأيت صورتين للولد الذي ضاع . صورة له وهو طفل يصرخ ويضرب الهواء بشراعيه ، والأخرى لشاب وسيم يغالب ابتسامة تريد أن تفرض نفسها على الصورة . وذات يوم - رحمة بها من قسوة الذكرى المستمرة - عرضت عليها أن تنقل هاتين الصورتين إلى مكان غير حجرة نومنا ، فلمعت عينها ببريق غريب أفرغني ، وقالت بصوت أجش :

- أنت بتخوف تقول إيه ؟ أنا أشيل صور إبراهيم من جيبى ؟ ده حبيبي أنا ! دول يفضلوا قدام عيني هنا على طول ، لحد ما ربنا يثقل لي وأروح له أنا بنفسى !

وكثيراً ما ضبطتها واقفة أمام الصورتين بلا مناسبة ، أو جالسة على حافة السرير تتأملهما وتشرب بهما وهي تتحتم بالصلوات ، وبين حين وآخر ترفع يدها لتسح عن عينها دموع جفت من زمان . ومعلت أمينة سحلة جافة ومدت يدها لتحسس الأبا جورة لتطفئها .

مثل طفلة صغيرة تنام أمينة ، وكل الناس أطفال إذا ناموا . طفلة في الستين من العمر ، فاغرة الفم في تلك البلاهة التي تميز الإنسان إذا انفصل عن عالم الوعي . أرجو أن تكون أحلامها في كاليفورنيا أو حتى في ماساشوسيتس ، أو أي مكان عدا ذلك الذي من أقصاه جاء الرجل بحري . سمعتها قرب الفجر تفتح اللالحة وتأكل منها بشراهة كما كانت تفعل زمان عقب الكارثة . وبينما هي عائدة كانت تلهث وتكلم نفسها قائلة .

- يحملك يا حمادة ! يحملك يا حمادة ! يحملك ويخليك يا حمادة ! وهنا عاودت النوم ناصية على غير عادتها أن تطفىء الأبا جورة . وذات يوم كانت هذه العجوز المسكينة شابة حلوة شهية مليئة برغبة الحياة ، وبالطفل الذي بقدر له فيما بعد أن يضع . على كنية تعددت منذ سنوات طويلة تقرأ ، وفجأة هتفت تناديني قائلة :

- تعالي قوام ! إجرى أمال ! هات إيدك !

ومخطقت يدي لتضعها على نقطة من بطنها قائلة في فرح بالغ :

- حاسس يه ؟ يلعب ! والنبي يلعب !

الجنين الذي انقضى شهر كامل وهي تنتظر منه أية إشارة تثبت وجوده ، فعلاً أحسست به يتفزز ويتلوى تحت يدي ، الكائن الغريب



## الفصل الحادي عشر

« زاهدة في الضفادع - لا تلدغ الآلهة مرتين » .





السلوك الذي تعودت عليه من الجراد والنطاط وغيرها من الكائنات الصغيرة ، أما أن يأتي ذلك السلوك من هذا الكائن الكبير فأمر بدا لها غريباً منه أو على الأقل غير لائق به .

مدت يداً حذرة مستكشفة ضربت بها على ظهر الضفدعة ضربتين خفيفتين ، فلما رأتها لم تفعل شيئاً خفضت يديها على ظهرها لكي تثبتا على الأرض فثبتت ، رغبة في التعاون إلى النهاية مع القطة الصغيرة العبيطة ، فعمدت موني إلى الاجراء الأخير الحاسم بأن قربت أنفها من ظهرها لكي تشمها مع لحة صغيرة منطلعة ، فما كادت تفعل حتى سحب رأسها بسرعة ووثبت إلى الخلف كأنما تكهربت . يديها تدعك أنفها بشدة لتصحو عنها شراً علق بها ، مع هرر رأسها بقوة لتتخلص من كثافة آثار هذا الشر . فلو أنها وجدت نفسها في الحمام لما استغربت لو رأيتها تغسل وجهها بالماء والصابون .

وكان هذا حسبها من الضفدعة التي ظلت جامدة في مكانها - ماضرة في أغلب الظن من القطة العبيطة - حتى تأكدت من انتهاء المناوشة فقفزت قفزتين دخلت بهما إلى الثغرة من تحت السور النياتي .

كان درسا مفيداً لموني ولي ، وفي بعض الكتب التي تهتم بالحيوان عرفت من المسألة ، كيف أن الطبيعة وقد رأت الضفدعة غير مهيأة للقتال ولا للفرار بهذه الصورة المزرية بالكرامة الحيوانية ، عمدت إلى تزويدها بغدة خاصة تفرز عند اللزوم مادة كريهة الرائحة والطعم شبه سامة ، فما يكاد المهاجم الجاهل يتعامل معها حتى يحدث له ما حدث للصغيرة العبيطة موني .

فهذا الضفدوع ليس بريئاً بقدر ما يوحي به منظره الفكاهي ، وليس يوجد بين الكائنات فيما يبدو كائن بريء ، ترى هل الأمر كذلك

لا شك أن المسامير التي دقته في الساق الخلفية للكرمي القش الأصفر قد عمل عملاً ، لكنه بالطبع ليس غاية المراد من رب العباد . فأرجو أن تكون عزيزتي تمارا وجذعها المتين مستعدين لإنقاذي مرة أخرى من بهدلة السقوط .

بالقرب مني تنام موني آمنة في حمائي من المتطفلين ، وعرفشة مفاجئة تحت السور النياتي فرفعت رأسها ونظرت إلى حيث نظرت ورأينا ضفدوع ، فسرعان ما خفضت موني رأسها وعاودت النوم ، تادمة على الجهد الذي بذلته في رفع رأسها . وقد يتساءل غير خبراء الحدائق عن السبب الذي من أجله ترعد قطة ذواقة مثل موني في لحم كائن مغلظ كالضفدعة ، وهو لحم يقدمونه كما نسمع في أرقى المطاعم الأوروبية . وذات يوم كانت موني صغيرة قليلة التجربة ، فوقعت أعمى في نفس هذه الغلظة التي يقع فيها غير خبراء الحدائق .

عرفشة مماثلة في السور النياتي ما كادت موني الصغيرة تسمعها حتى ألصقت بطنها بالأرض إيداناً بالهجوم ، وهزت مؤخرتها تلك الهزة التقليدية ثم انطلقت كالسهم نحو الهدف ، فما كادت تصل إليه حتى فرملت وتوقفت وبدا لها أنه يحسن بها أن تعيد حساباتها ، فهذا الكائن لم يكن يسير مثل كل الكائنات بل كان يقفز ، ذلك



مع الفراشة اللطيفة البيضاء ؟ وكان ما زال يتلکأ - ضفدوع - تحت  
السور النباني ، وقفز قفزة ثم قال لي مودعاً :

- آووو !

فتلفت حولي قبل أن أردد عليه السلام ، حيث أجلس على الكرسي  
القش العتيق الأصفر .



## الفصل الثاني عشر

« ملاكي الحارس ، أحبك - منظر مريب على جذع رينا -  
اكتشاف موهبة الصراخ - رينا ضد المقطورة - غصن امتنان يخلج »





مرة أخرى أشعر أنني يجب أن أصدق حكاية الملاك الحارس الذي يسهر على مصالحني وبرعائي ويحفظني الكثير من بلاوي الزمن ، وإلا فما الذي دفعني في ذلك اليوم إلى أن أخرج إلى الشرفة مبكراً عن مواعدي بساعة ، في تلك اللحظة الحرجة الحاسمة التي تفصل بين الحياة والموت ؟  
فما كدت أخرج حتى رأيت على الجذع الطويل وراء السور شيئاً يوشك من قرط غرابته أن يدخل في باب اللامعقول . رأيت رجلاً أسمر اللون قبيح المنظر (والمخبر غالباً) يحتضن الجذع الرشيق بذراعيه ويحيطه بشخصيه ويتسلقه بخفة القرد ، يحصره مشدود إليه بحزام خاص وفي يده بلطة كبيرة لامعة ، الأمر الذي لا يترك أي مجال للشك في العمل الوضيع الذي يقترفه ذلك المجرم الأثيم .

فلو أنني مصاب بمرض في القلب لسقطت من طولي صريعاً ،  
والحمد لله أن الروماتزم ليس من الأمراض التي تمنع الرجل من الصراخ  
عندما تدعو إليه الحاجة . من أعماق قلبي الملهوف أطلقتها عدة صرخات  
متلاحقة هزت أركان الحديقة هزاً ، صرخات ما كنت أحسبني قادراً  
على أن أطلق مثلها ما حيث .

— جمعة ! يا جمعة ! أنت فين يا جمعة ! يا بن الكلب يا جمعة !  
جمعة ! جمعا ١١١١ !

الرجل قبيح المنظر والمخبر تجدد على الجذع الطويل الرقيق ،  
وصوت جمعة أغاني من آخر الثوب يقول بدهشة واضحة :

— آیہ با بیہ ، فیہ حاجۃ با بیہ ؟

— تعالیٰ ہمارا خالق !

فرايت الخيمة البيضاء تقترّب مهرولة وراء السور النياي ، وأتاني الصوت المبحوح متسائلاً في براءة .

- أي خدمة يا به ؟

فقلت بصوت يذلت أقصى جهدي لكي لا يكون متهدجاً :

— المراجع له يعمل أیه عم الشجرة ؟

الفتاوى المجموعه بياضه :

— **مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا**

فَصْرَحْتُ بِهِ فِي جَنَّتِهِ :

- يقطعها يعني ايده؟ هي قروضي؟

- الحاج زكير هو الذي أمر بكده يا بيه ، عشان المقطورة الجديدة يعني .

وشرح لي كيف أن المقاول صااحب الأرض قد اشترى للورى

مقطورة جديدة ضخمة ، وكيف أنه حضر بالأمس وحاول أن يدخل

بها إلى الشجرة فتعذر عليه ذلك بسبب الشجرة التي تسد الطريق فأمر

یا قیلا علیہا

## ۱۔ یادِ کلمہ؟

- ده الى حصل يا بيه .

— طَبَّعَ مَا يُوسَعُ بَابُ الثَّوْنَةِ ٩

- توسيع الباب فيه صرف فلوس ، لكن قطع الشجرة ح يجب فلوس !

— طوب لفق وتعالى لی هنا .



وقبل أن يصل جمعة كنت قد أعددت في جيب الروب ورقة  
بخمسة جنيهات ، وبينما أنا أكله كانت يدي تتقبض عليها كأنما  
أستمد قوتي منها . قلت له بأكثر ما أتيح لي من هدوء :

- شوف يا جمعة ، بصراحة كده الشجرة دي عزيزة عليّ . يعني زي ما  
تقول اتعودت عليها وبقت حبة م الحنية .

فقال وفي صوته المبحوح رنة حزن :

- والله وعزيزة عليّ أنا كمان يا بيه ، غير شي أنا عبد المأمور ؟

- خلاص يا جمعة ، ما تقطعهاش . عشان خاطرني أنا يا جمعة .

ولمست في صوتي نبرة توسل لم تعجني ، وقال جمعة في حيرة :

- بس أقول ايه للحاج زكير ؟

- قول له أي حاجة . خد .

ومددت الورقة السحرية نحوه قائلاً :

- راضي الرجل ده بحاجة والياقي لك أنت .

ويبدو أن رائحة الورقة تفادته أكثر مما قلرت ، إذ صاح الرجل

الذي على الشجرة فجأة يقول :

- اشتغل ولا ما اشتغلشي ما تفهمونا ؟

فقال له جمعة :

- انزل يا عبده وأنا جاي لك آهه .

فراح الرجل يبرطم قائلاً !

- اطلع يا عبده انزل يا عبده ، ربنا يتوب علينا م الشغلانة دي !

ودس جمعة الورقة في أعماق جيبه الفسيح وابتعد متمايلاً . فتمنيت

من أعماق قلبي أن أعرف أين يوجد ذلك الملاك الحارس لكي أذهب

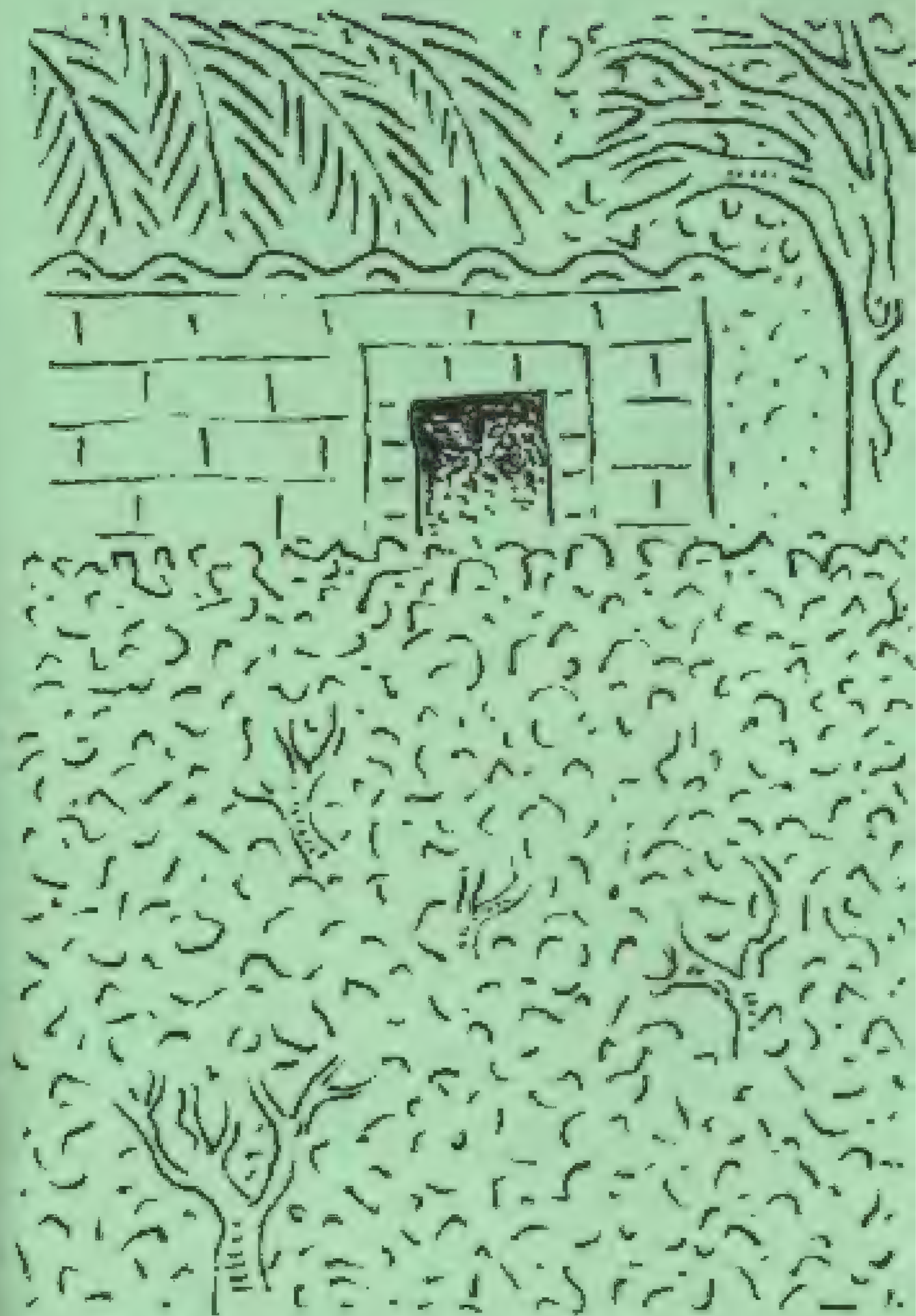
إليه وأفيه حقه من الشكر وأكافئه أن كان هذا ممكناً .

وعبر السور تيمت للعزيزة رينا - التي كان يمكن أن تكون في  
هذه اللحظة كتلة خشب كبيرة ميتة على أرض الشونة - وأرسلت لها  
قبلة على الهواء ، فرأيت غصناً من أغصانها يختلج بغير ما ريح تحركه ،  
وهذا في اعتقادي أقصى ما يجب أن يتوقعه رجل عاقل من شجرة  
كرورينا على سبيل اظهارها للإمتنان .



## الفصل الثالث عشر

١ اسطوانة سككت - امرأة باردة البطن - واجب الغراء لصوت  
خبيذه - لحيستان نجستان لا لحسة واحدة ٥ .





صوت جمعة عند باب المطبخ فقصدت أمينة إليه وغادرت بعد لحظات قائلة !

- شوف له اتين جنيه غلبان يدفن بهم الواد .

فأعطيتها الجنيهين ونهضت متحامللاً لكي أؤدي واجب العزاء البغيض للرجل المنكوب .

- البقية ف حياتك يا جمعة !

- حياتك الباقية يا بيه .

- شد حيلك ، كلنا لها .

- كله على الله يا بيه .

وحيث وقف في الحديقة عند باب المطبخ لمحت عند قدميه شيئاً غير طبيعي ، الكلب صوت سيده وقد دخل إلى الحديقة مع صاحبه للمرة الأولى ، ووقف ينظر إلينا في بلاهة ويهز ذيله . ولم يكن غريباً من أمينة أن تسمح له اليوم بالدخول ، فللموت رائحة أقوى من كافة الروائح حتى رائحة النجاسة . واستأذن جمعة وابتعد في خيمته مطرقاً ، حاملاً كما يبدو هم عملية الدفن أكثر منه حزناً على الطفل الذي مات . أما أنا فلم أجد في نفسي ذرة واحدة من الحزن عليه ، ولربما كنت أقرب إلى الارتياح وقد خلص هذا الكائن التعس من ترديد ذلك اللحن الجنائزي الصديء الذي لم يعرف قط غير كلمة آه .

ثم غامرت بعد حين بالنزول إلى الحديقة وقد خيم الصمت على الشونة إلا من صراخ الفرخة التي تبيض . على الكرسي القش الأصفر جلست مستمعاً إلى صوت السكون ، ثم ساورني إحساس بأنني تحت المراقبة . وفي الشجرة القريبة من السور رأيت البوز الطويل البني لصوت سيده وهو ينظر نحوي متائلاً : هل أدخل ؟ وبالرغم من أنني لم أجه

- يا بختك يا نحوياً بنومك ! بدمتك ما سمعش حاجة خالص ؟

هكذا صبحتي أمينة وأنا جالس أشرب الشاي على الفتوي النبي الذي كان أزرق ، في الكوب الكبير الخزف البني ، الموضوع على الترابيزة المستديرة التي لا أذكر لماذا ولا متى طليت بهذا اللون الأسود الحاسم .

- ده صواتها كان واصل للسا !

صوت أم شحانة كما شرحت لي ، حين فوجئت الولية وقت صلاة الفجر أن ولدها قد كف عن البكاء بغير مناسبة ، ولا هو يتحرك ولا حتى يتنفس أو يستجيب لضربات اليد ، فرقت بالصوت وجمعت حولها بعض النسوة من الجيران . ساعة كاملة وهي تبكي وتلطم وتمدد على الطفل الميت في حجرها ، حتى أقبلت الحومة المختصة بتغيبه وإعداده للدفن . وهو ثالث طفل يموت لجمعة كما رددوا من جديد ، وعن جمعة قيل إنه قال في محاولة لتفسير ذلك :

- مرة بنت كلب بطنها باردة ، كل عيالها تنزل ناقصة سوا !

فقررت أن لا أنزل إلى الحديقة تحاشياً لجو الشونة الحزين ، وصوت النائح اللواتي يتناوين سرد الحكايات عن عيال ماتوا :

- يا ست هانم يا حاجة !



فأنه دخل ، وبالقرب مني وقف يهز ذيله حائراً ماذا يفعل بنفسه وقد أصبح في الحديقة المحرمة ؟ فأحسست برغبة ملحة في أن أُلْسِه ، وإن ساورتني في الوقت نفسه نوع من الخوف بسبب فكرة نجاسته ، فإني لبيت أن ضحككت من نفسي ومددت يدي نحوه داعياً .

- تعالي يا فيدو . قرب هنا .

فكان دوره في أن يتردد إزاء هذه المبادرة التي لا سابقة لها ، ثم بدأ يتحرك نحوي على مهل . خطا خطوتين وتوقف ، ثم خطوة أخرى جعلته أمامي . ونحو يدي الممدودة أدنى رأسه وخفضها لكي يتيح لي أن أربت على دماغه البنية العارية من الشعر .

- أنت ضحيي نجس يا فيدو ؟

هكذا سأله فأصدر صرخة خافتة غير مفهومة ، وأضفت قائلاً :

- البقية في حياتك يا سيدي .

فهز ذيله بشدة حتى رقصت مؤخرته كلها ، وكانت طريقته في رد الغراء أن مال برأسه وخطف من ظهر يدي لحنتين لزجتين بلسانه الطويل الأسود النجس .



## الفصل الرابع عشر

« لا تسرف في القلق على زوجتك - ماذا عن التذكيرة ؟ - العجوز  
والكواخير وشاي بالياسمين » .





طول عمري أقلق على أمينة إذا مرضت مهما كان مرضها تافهاً ،  
وكنت أفسر ذلك بشدة حبي لها وخوفي عليها ، إلى أن تدخل في الأمر  
عالم وغد من علماء النفس فأخطرتني بأن إشراف الإنسان في القلق على  
المريض ما هو إلا محاولة لا شعورية من عقله الباطن لإخفاء رغبة كامنة  
هناك في أن يكون ذلك المرض قاتلاً ! فأزعجني ذلك الكلام بالطبع ،  
لكنني تجاهلته بعفته ورغبة لا شعورية عند صنف من علماء النفس في  
تشويه كافة الدوافع النبيلة وتعكير مزاج أصحابها .

غير أنني معذور في قلقي عليها هذه الأيام ، بسبب تلك الدوخة  
التي أصبحت زائراً شبه يومي لها . فاستدعينا الدكتور فتحي ، الرجل  
القصير النحيف الهادي إلى درجة البرود ، طيب الأسرة منذ سنوات .  
بدقته الشديدة وأمانته المعهودة كشف عليها ، وراح يستبعد على طريقته ما  
يجب استبعاده من الأمراض ، ثم قال بصوت محايد :

- ضغوطك مرتفع شويه ، قللي الحوادث . وباريت عملي لي تحليل سكر .  
وكان تحليل السكر سليماً ، فأمرها بأسبوع من الغذاء الصحي  
والراحة في السرير مع بعض الأدوية .

وهناك قالت لي أمينة وقد رأيتني جالساً أمامها لا أتحرك :

- أنت ح تريط نفسك جنبي كده ليه ؟ قوم على جنبتك جنب أشجارك !

وسحبت بلوكنوتاً وقلماً وقالت :

- دنا ح اكتب جواب لحبيبي .

فما كادت تشرع في الكتابة حتى بدت عليها الحيرة وقالت :

- بس ح اقول له إيه على تذكرة الطائرة ؟

فاقترحت عليها أن تكتب إليه عن الفرق بين الجمع والمثنى عند  
مخاطبة الوالدين ، لكنها قالت متجاهلة :

- اقول له إيه صحيح ؟

- ح تقولي له إيه ؟ قولي له كتر خيرك وموش عاوزين النهاردة !

فقلت متخابة :

- طبعاً أقول له بيعت كمان واحدة ، يمكن تطلع في دماغك تاخذني  
ونسافر !

فقلت ساخراً :

- أنا أسافر أمريكا ؟ دنا بأسافر بالعافية لآخر الجنة !

ونهضت فأحسست بالموخز في ركبتي كأني طلعت السلم .

- أنا قاعد جنبك في البلكونة هنا ، إذا عزتي حاجة .

وتركتها وهي تعض القلم في حيرة ، تلميذة ملخومة في السنين .  
وفي الشرفة جلست على الكرسي القش الأحمر بعد أن نظفت من زهور  
الياسمين . الوقت أصيل وأنا لا أحب الأصيل وأفضل أن أقضيه نائماً .  
هو أشبه شيء بامرأة عجوز نذهب إلى معهد التجميل كل يوم ، وتعود  
منه لتجلس أمامي محاولة أن تستكشف رأبي في عيني ، وهو الرأي الذي  
يجيب رجاءها على الدوام فتشيع في مجاميد وجهها صفرة تشبه صفرة  
هذا الأصيل . وظلال الأشجار قد بدأت تستطيل وتندخل فأعست



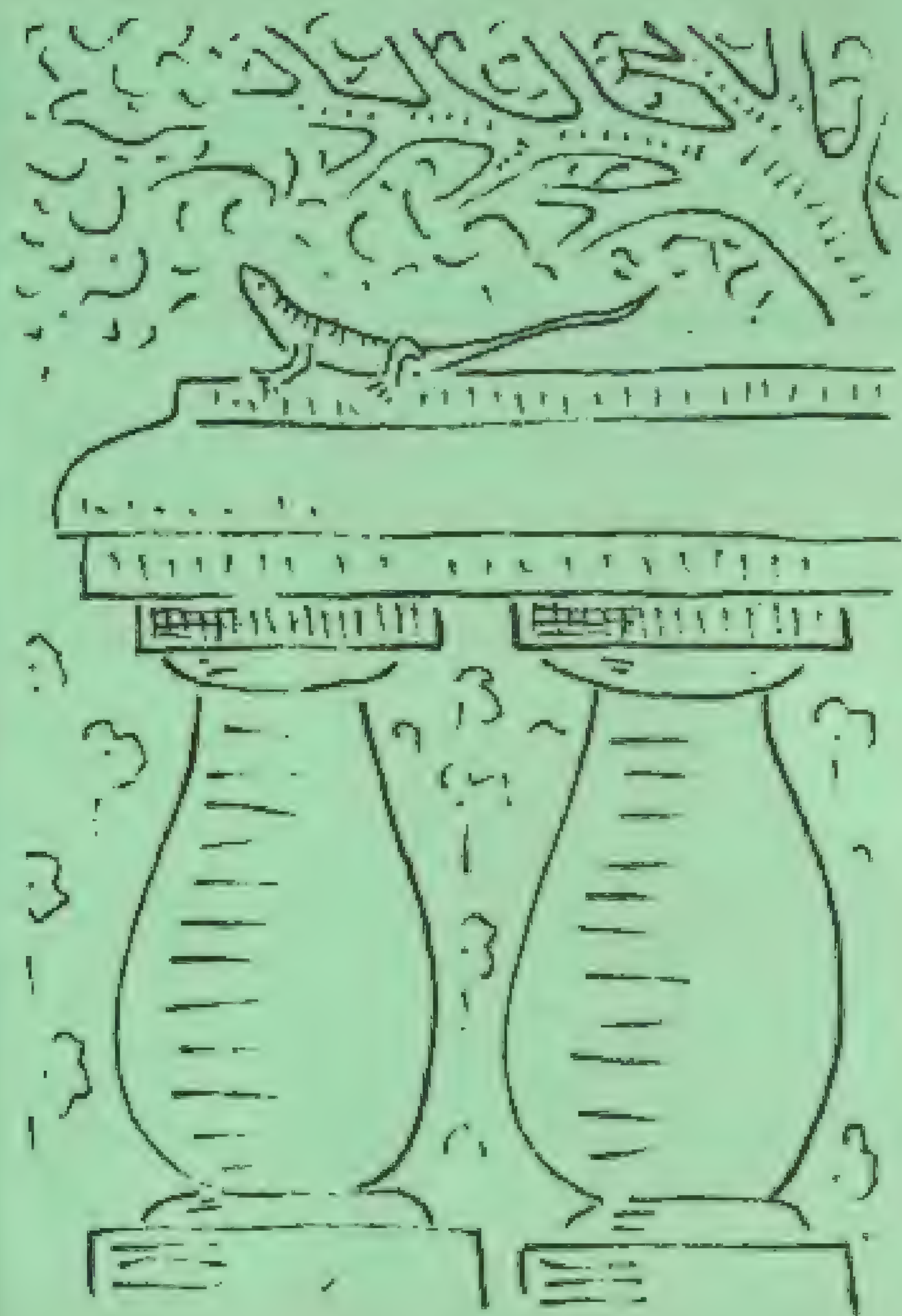
الحديقة قبل موعدها . والشجرة الطويلة الرشيقة المهندمة قد اكتست  
بغلالة خزينة صفراء .

وبجاني سقطت زهرة ياسمين في الكوب الخزف البني ، طفت على  
سطح الشاي مثل زهرة لوتس على سطح بحيرة مقدسة . وأمية مثل  
الكثيرين تحب أن تشرب الشاي بالعنّاج ، فلماذا لا أكون أنا أول  
من يجرب شربه بالياسمين ؟



## الفصل الخامس عشر

لماذا لم تأكل القطة السحلية ؟ - غذاء العيال الحلويين - الأمهات  
الحنونات القائنات ..





فيحييهم الخبراء بأنها ما صادتها لتأكلها وإنما صادتها من أجل العبال  
الحلوين ، الذين لم يعد لبن الأم يكفيهم وصار تنويع الغذاء أمراً ضرورياً  
لصحتهم .

بالسحلية قصدت إليهم ووضعها أمامهم ، فأقبلوا يشمونها ويفحصون  
أمرها ، وكانت فيما يبدو أول سحلية يعاينونها في حياتهم . وأعجبهم  
الوليدة لمبدأها بسوقونها ويأكلون ، والأم الحنون وافقة تفرج ولا يحظر  
على بالها أن تمد يدها لتصيب فتوتة واحدة . فهي صورة مؤثرة حقاً  
للحنان الذي تتميز به موني بالرغم من سفالاتها الأخرى العديدة .

وما كان لي بالطبع أن أنسى الأم الحنون الأخرى وهي السحلية ،  
التي لا أشك من أنها ما غادرت العش بدورها إلا لتلمس شيئاً من الغذاء  
لعيالها الحلوين . أم حنون وجدت نفسها في لحظة من سوء الحظ بين  
أنياب أم حنون أخرى أكبر حجماً ، والأمر كله يستوي ما دام يجري  
في حجر الأم الحنون الكبرى ، أمهن الأرض .

ومددت يدي نحو موني أتحنس بطنها البيضاء وأقول مداعباً .

- أوعي يا بت نكوفي حبلتي على كبر !

فصويت إلي نظرة استنكار تقول :

- بلا نيلة ! أنا قادة آكل عشان أحيل ؟ !

موني راقدة على جنبها تلمس صدرها الأبيض وما يطوله لسانها  
من بطنها ، مثلما كانت تفعل زمان في عهد الشباب في أيام الحمل  
الأخيرة ، إذ تريد أن تجهز ألداءها الستة لاستقبال القطيطات العزيزة  
المرتقة . لكن اليوم بالطبع لا تهدف إلى شيء أكثر من النظافة العامة ،  
رأيتها في مثل هذه الرقدة ترضع أربع قطيطات مختلفة الألوان ،  
عائقة بصدرها وبطنها مثل ديدان كبيرة شرهة تلتهمها التهاماً . وهي  
مستلزمة سعيبة تمد لسانها بين حين وآخر لكي تلمس ظهور القطيطات  
وتنظفها ، وفي قول آخر أنه لا نظافة هناك ولا يحزنون ، وإنما هي  
تريد الانضاع بما يوجد بوفرة في فروة القطيطات من فيتامين ب .

ولأمر ما رأت أن تقطع عملية الرضاعة وتنفض ، متخلصة بصعوبة  
من الديدان المتشبعة بجسدها . وهناك في الركن تركتها واجهت مسرعة  
نحو السور النباتي ، ناظرة إلي وهي تنوّر كأنما تقول :

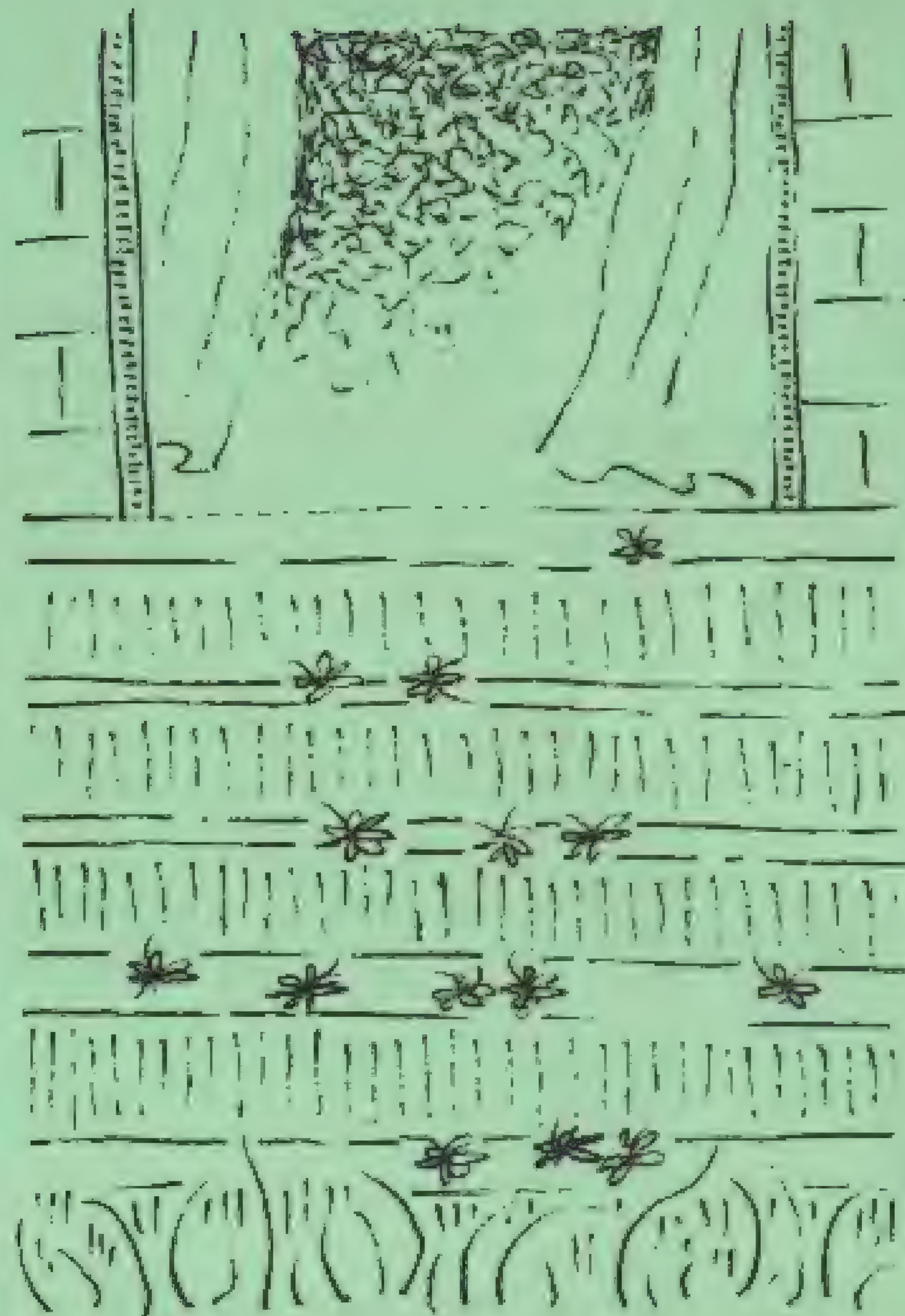
- خلي بالك م العبال !

ولم تغب في الشرة أكثر من لحظات ثم عادت متواثبة في نشاط ،  
من فيها يتبدل شيء طويل يتلوى قد يلتبس أمره على غير خبراء المحدثين ،  
أما الخبراء ، فيعرفون فيه على الفور سحلية صمينة نصف صاحية . ويتساءل  
غير الخبراء عن السبب الذي من أجله لم تأكل القطة تلك السحلية ،



## الفصل السادس عشر

أ أيام نظيفة وعصية - عن الهباب والياسمين - ياسمين في الزبالة -  
لغز السم المعطر - أيلهاء العزيرة \*





لأنها طويلة ورشيقة فقد كان يجب أن تكون أكثرهن عذاباً أمام تلك الرياح الوضيعة المسماة بالخماسين . فتلك الرياح وإن عصفت بزهرة وتماراً فهو عصف محتمل لا يسقط منها إلا بعض الأوراق ، وأما عصفها الشديد فعند قمم الأشجار المرتفعة ، تلعب بها بقسوة وتدفعها بيميناً ويساراً ، فيبدو للإنسان من شدة ميلها أن جذعها قد ينكسر في أية لحظة من هذا العبت الربيعي . فإذا كان الشتاء يقصر على الناس في الخارج فهو يعرض ذلك بأنه يقصر علينا في الربيع وبذلك أن يحرمنا منه . فإذا تغنى شعراؤنا هنا بنسمات الربيع الحنون فهم لا يزيدون عن كونهم ييغافات تردد ما يقوله الشعراء الذين عندهم ربيع حقاً . ويتعامون عن تلك الرياح المترية التي تكسو الأشياء باللون الأصفر الكتيب وتزيد العيون عماء على عماها .

فتحت باب الشرقة فقابلتني دفعة ربيع قوية مائلة إلى السخونة إلا أنها تستحق أن أجربها . وفي الداخل جلست على الفوقى اللبني الذي كان أزرق ، ناظراً إلى أرض الشرقة التي أغرقها الرياح بزهور الياسمين الساقطة . ودفعة أخرى قوية من الريح نفخت كمية من تلك الزهور إلى داخل الحجرة لترين البساط النيلي العتيق باللوانير البيضاء المعطرة ، وصوت خبط ووزع أسمعه من بعيد على النوافذ وقطع الآثاث ، إذ أخذت

أمنية إلى الراحة أسبوعاً كاملاً فكان يجب أن تعوض بيوم من النظافة الحادة ، وبمنفضتها الكبيرة الممزعة راحت تضرب كل ما يقابلها من الأشياء الضعيفة العاجزة كالكراسي وغيرها . وما هو صوت الخبط بقرب في الطريقة الطويلة ، وما لبثت أمنية أن ظهرت عند مدخل الصالة ، فما كادت ترى المنظر على الأرض حتى ضربت يديها على صدرها .

يا ندامتي ! إيه جاب الهباب ده هنا ؟ !

قلت متكهماً :

- عشنا وشفتنا الياسمين يسمى هباب !

فتجاهلت كلمتي وقالت :

- ما أنت قانع لي الباب على آخره !

وابتعدت مسرعة إلى الطريقة الصغيرة المؤدية إلى المطبخ . اختفت لحظة وعادت تحمل القشة ذات اليد الخشبية الطويلة والجاروف : بالقشة تدفع هباب الياسمين نحو الجاروف ، في نشاط غير مألوف غابت عنه كافة أعراض الرومانزم . وانتهت من تحميل الياسمين في الجاروف فالتجھت إلى باب الشرقة قائلة لي باستئذان ساخر :

- ممكن أقفله بعد أذنك ؟

وكانت قد أقفلته فعلاً وهي تهرطم قائلة :

- مش قادر يبعد عن الشجر يوم واحد !

فلم أعلق بشيء ، إذ تعلمت بالتجربة أن أنجاهل رذالاتها الصغيرة ما أمكنني في مثل هذه الأيام النظيفة . وحملت هي الجاروف والتجھت به إلى المطبخ حيث يلقي الياسمين نهايته الحزينة في صفيحة الزبالة . فتذكرت بحثاً قرأته في إحدى المجلات ولا أعرف مدى صحته : عن النبات اللامي يحترق في جمع محصول الياسمين في مزارعه عاماً بعد



عام ، كيف أنهن جميعاً يمتن قبل سن الثلاثين لأسباب تبدو غامضة  
وإن كانت غاية في الوضوح وهي علاقتهن بزهور الياسمين . ذلك أن  
رائحة الياسمين الزكية المسكرة ليست بريئة بقدر ما تبدو ، بل هي في  
الحقيقة سم قاتل لمن يدمن تعاطيه زمناً طويلاً . عاماً بعد عام يتغلغل  
السم المعطر في صدور البنات المسكينات ويعشش هناك ، متسرباً إلى  
دمائهن شيئاً فشيئاً لكي يقتلهن ذلك القتل البطيء . وفي جوف القبر  
العفن المظلم ، ترى كم من الزمن يتضوع عطر الياسمين من جسم البنت  
التي ماتت في سبيله ؟

وهبة ربح شديدة فتحت الباب الذي أقفلته أمية ، ولوثت البساط  
النيسي مرة أخرى بالزهور الضاحكة البيضاء . فتنهدت ونهضت  
لأجمعها ، وفي راحة يدي رفعتها إلى أنفي لكي أتهل من عطرها قبل  
أن أضعها في جيب الروب الرمادي . نعم هي سوف تذبل هناك وتموت ،  
لكن ربما كان جيبي قبراً أكرم لها بعض الشيء من صفيحة الزبالة .  
وباب الشرفة أقفلته كما كان ووقفت وراء الزجاج أقول للصديقات  
معتذراً :

- مغلش يا حلوتين ، سامخوني النهاردة .

ومن وراء ظهري أتاني صوت أمية يقول لي في دهشة :

- بنكلم مين ؟

فأجبتها في إيجاز :

- الشجر طبعاً .

وانتظرت أن تقول لي كلمتها الخالدة عن عقلي واكتسالي لكنها

لم تفعل ، بل قالت بنبرة بريئة إلى درجة السذاجة :

- وهو الشجر ح يسمعك والباب مقفول ؟

فوجدت نفسي بالرغم مني أهتز بضحك مكتوم ، وقصدت إليها  
لكي أطبع على تجاعيد خدها قبلة حب .  
- اشمعني يعني ؟

هكذا سألتني في استغراب فقلت لها صادقاً !

- بأحبك



## الفصل السابع عشر

« رغبة دموية - هل هي تصلي ؟ - عروس وضيعة - الحب بغير رأس - هو يحب وهي تغدى » .  
 « طعام الصفوة - نظرة الموت الأخيرة - الثعبان المعتذر » .





على خضرة ياسمينية القريبة رأيت شيئاً أثار في نفسي على غير ما لوفي  
رغبة شديدة في القتل ، إذ نصحت نفسها بحركة صغيرة تلك الكتلة  
الطويلة من الخضرة المنبسطة . رأسها مثله مثل كرسي البسكليتة ، وذراعاها  
مسننان مثل المناشير ، وبين حين وآخر ترفع يدها حول رأسها وتحركهما  
فيخيل إلى السذج أنها تصلي .

- نفسي أقوم اقتلها !

هكذا قلت لأمية حيث جلست في الشرفة في صباح خفت فيه حدة  
الرياح :

- هي إيه ؟

- المجرمة دي .

وأشرت إلى فرس النبي فراححت أمية تبحث عنها بعينها وسط الخضرة  
حتى رأتها فقالت :

- حرام دي مبروكة !

وحيث جلست على الكرسي الأخضر الذي نقلته إلى الشرفة شرحت  
لي كيف أن هناك رأياً له ثقله يؤكد أن النبي عليه السلام قد امتطى واحدة  
من بني جنسها إلى بيت المقدس ليلة الإسراء .

- تحبي أحكي لك اللي قريته عن المبروكة دي ؟

وقبل أن تجيب بنفي أو إيجاب رحت أحكي لها كيف تربص  
تلك الوضعية الخضراء مثلما تفعل الآن في انتظار عريس الغدلة ، عالمة  
أنه لن يلبث أن يصل ليقع في الشرك الذي سبقه إليه الكثيرون . فإذا  
وصل فما هي إلا لحظات من تردد الحياء حتى يتواجد في المكان الطبيعي  
بالنسبة للموقف وهو فوق ظهرها ، وكل شيء حتى الآن جميل .

هذه العروس قد حباها الله بميزة نادرة في عالم الحيوان ، وهي  
قدرتها الغدة على أن تلوي عنقها إلى الخلف وتدير رأسها دورة كاملة ،  
بحيث يصبح وجهها على حد تعبير الكوميديان الشعبي محل قضاها ، وعلى  
مهل تدوير تلك الآلة الجهنمية إلى الخلف حتى يصبح وجهها مقابلاً  
لوجه العريس تماماً ، الأمر الذي قد يوحى إلى مراقب شاعري الترفة -  
مثلما أوحى فعلاً إلى أكثر من عريس - بأنها قد اشتاقت في ذروة من  
الانسجام إلى أن تطبع على فم العريس قبلة حارة .

لكن القبلات كما يتضح بعد قليل هي آخر ما تفكر فيه تلك  
الوضعية الخضراء ، وأنما هي تتلمس بغريزتها في رقبة العريس غدة  
خاصة وظيفتها كبح الغريزة الجنسية في الظروف العادية ، تلك الغدة  
التي تحولت في ظروفنا الحالية إلى عنصر معوق يجب استئصاله . بمهارة  
الجراح تشق في عنق عريسها شقاً مؤدياً إلى تلك الغدة ، وتشرع في  
قرقرتها بأكثر قدر من الرفق كي لا تصدم مشاعر العريس النشوان .  
ومن تلك الغدة تنتقل إلى رقبة العريس نفسها ، وبنفس الرفق  
والأناقة تشرع في قرقرتها حتى تأتي عليها ، وحتى يصبح العريس فاقداً  
لبعض من الأعضاء الهامة نسبياً للكائن الحي وهو الرأس !

إذ أن الجهاز العصبي في تلك الكائنات ليس جهازاً مركزياً كما  
هو الحال عندنا ، بل أن كل عقلة من العقل المكونة للجسم تضم مركزاً



عصبياً مستقلاً يمكنه أن يعمل لحسابه الخاص بغير اعتماد على الرأس .  
ومن ثم يحدث كثيراً أن يواصل العريس وظيفته الغرامية ولادة  
طويلة وهو بغير رأس . هو غرقان لشوشته في حب السيدة وهي مشغولة  
عن ذلك ناعماً بالتهامة على مهلهما ، قطعة قطعة ، أي بالاختصار أنه هو  
يحب وهي تتناول الغداء . فإذا ما استيقظ بعد حين أغراضه كعريس  
طرحته عن ظهرها أرضاً وثقت بطنه باحثة عما فيها من القطع المسكرة  
على سبيل الحلوى .

- شقي يا ستي المبروكة بتاعتك ؟

فلم تجب أمينة من قورها ، متشاغلة باحصاء الغرز الزرقاء على إبرة  
التريكو وقد تقاربت عيناها فوق أنفها فبدت شبه حواء . وأخيراً قالت  
متألفة :

- جيت الكلام ده مين ؟

- من الكتب :

فقلت في إيجاز حاسم ؟

- ما تصدقش كل حاجة تقرأها في الكتب !

وأضافت قبل أن أعترض ؟

- وسيني وحياتك أعد الغرز !

وواصلت عملية الإحصاء ، وواصلت أنا تأمل تلك الكتلة الشريرة  
الخضراء والوك أفكارى الدموية .

وخرفشة تحت السور النباتي وجسم قفز هناك مرتين ، ومن موضعي  
في الشرفة لم يكن في وسعي أن أرى عيني ضفدع . لكنني سمعت صوته  
يقول :

- آووو !

وكان في صوته نوع من التساؤل لأنه هو الآخر لا يمكن أن يراني  
من هناك ، وقفرة ثالثة أخفته عني في الشوكة . وقفز ذهني إلى يوم كنت  
في حديقة الحيوان ووجدتني أمام بيت زجاجي كبير يقيم فيه ثعبان  
من نوع العمالقة ، في ركن من البيت رقد الثعبان ملفوفاً على نفسه كأنه  
حبل من خيال البحارة كومه على رصيف الميناء ليسحبوا به عند الطلب  
إحدى السفن ، غارقاً في النوم وفي عينيه السوداوين المفتوحتين براءة  
طفل رضيع . أكل فشح قنام ، فإذا صبحاً جائعاً فما عليه إلا أن يمد  
رأسه إلى بركة ماء قريبة منه في نفس القفص ، وفيها تعيش قبيلة من  
الضفادع مختلفة الأحجام ، تأكل ما تجد في الماء الراكد وهي في حال  
غريبة من الطمأنينة واللامبالاة بالخطر الجاثم بجانبها طول الوقت .  
ويصحو الثعبان فيمد رأسه نحوها ليتفحصها متخيراً منها ما يصلح  
لوجبه .

مدى لحظة تلتقي عيناه السوداوان في أغرب نظرة بعينين جاحظتين  
لضفدعة ، يتبادلها كائنان قبل أن يأكل أحدهما الآخر . في عين الثعبان  
بحشت عن الكراهية فلم أجدها ، ولا وجدت أي شعور بالإثم . وفي  
عين الضفدعة لم أجد الخوف ولا حتى مجرد العتاب . فبينما أنا أنظر  
في عيني الثعبان خيل إلي أنني سمعته يقول للضفدعة :

- أنا شديد الأسف يا أختاه على ما سوف يصدر مني حالاً ، لكنك  
تعرفين أن هذا هو ناموس الحياة . لكي أعيش أنا يجب أن تسوقي أنت ،  
وبما ليهم وضعوا لي بدلاً منك فأراً سمياً أو خنزيراً صغيراً مشبعاً . أما  
وليس أمامي سواك فلا مناص لي من أن آكلك ، وما أحسبك ترضين  
لي بذلك الفضيحة بين أقراني ، أن أكون أول ثعبان في التاريخ يموت  
بسبب إضرابه عن الطعام لاعتبارات أخلاقية .



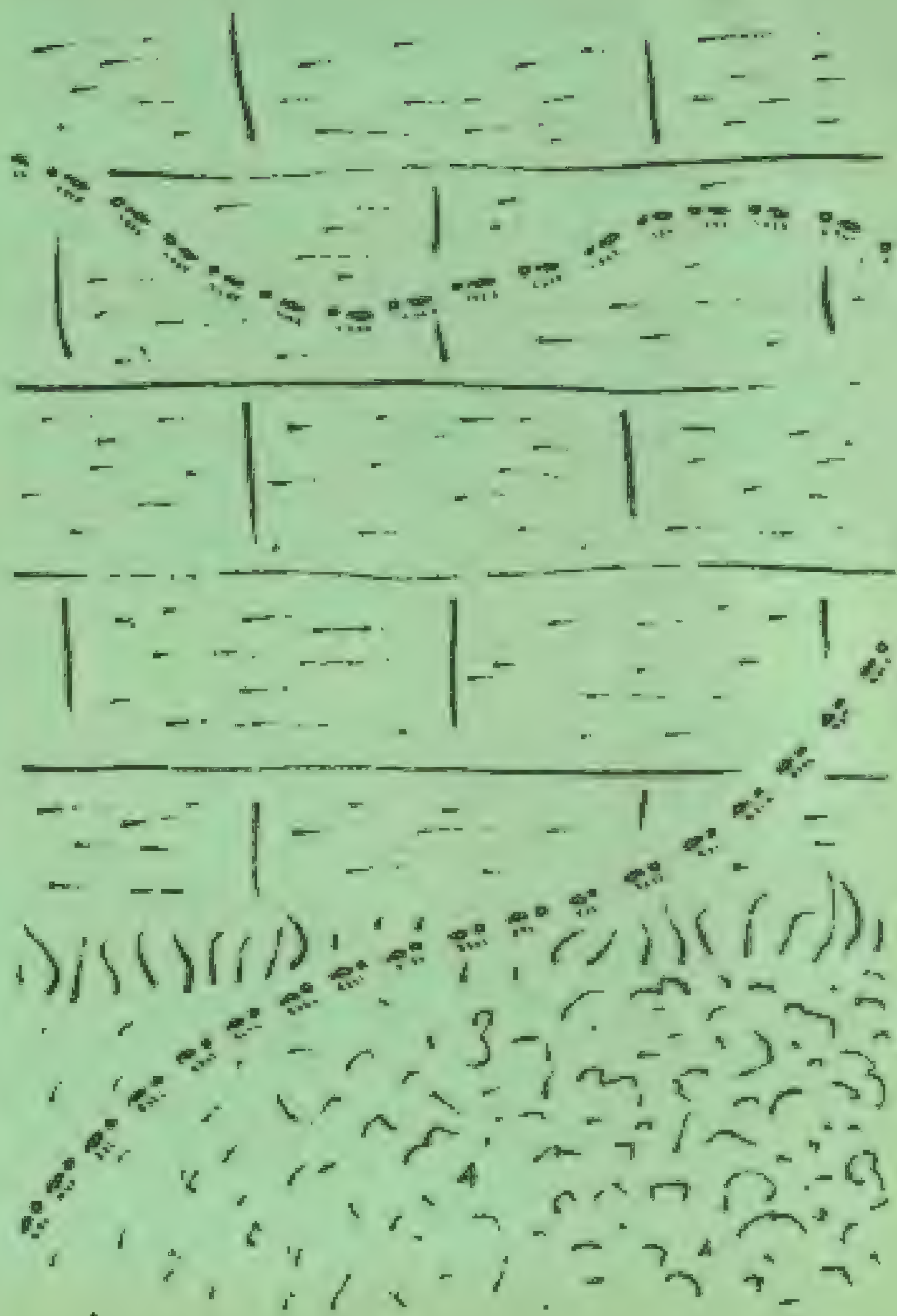
وكننت أحب أن أسمع بماذا ترد الضفدعة على هذا الكلام ، لكن  
الوغد لم يمهلهما .

وسوف تظل الحداثق خير مكان يقضي فيه الرجل العاقل وقته  
علما كان فيها إلى جانب الشجر والزهر والعصافير والقطط - ضفادع  
ذات عيون جاحظة - متسائلة ، حقيقة لا تغير منها تلك الخلفية البعيدة  
من الأنين الأبدي في الأسطوانة التي علفت على كلمة آه .



## الفصل الثامن عشر

الطائر الأبدى - قاتل النملة في جهنم - الجملة والمطاعي في  
قتل النمل - حاسب النمل يا جمعة .





## النمل وأمي وجمعة

و ذات يوم رأيت أمي تحمل زجاجة كبيرة تفوح منها رائحة الجاز ،  
وتتجه بها نحو ركن في المطبخ حيث جلست القرفصاء لكي تفرغ  
محتوياتها في أحد الحجور هناك .

- بتعملي إيه يا نينة ؟

هكذا سألتها في براعة فلم تجبني ، إذ كانت كما تبنت بعد ذلك  
تصب الجاز في أحد أوكار النمل بقصد إبادة وتطهير المطبخ منه .  
فعجبت أشد العجب من هذا التناقض الصارخ أمامي ، إذ تسبب أمي  
لنفسها قتل آلاف النمل بضربة واحدة ساحقة ، في حين تحاسبني أنا  
على استمئاع البريء بين حين وآخر بقتل نملة واحدة بقيمة فهل هي  
لا تكثر بما ينتظرها يوم القيامة من عذاب أليم ، أم تراها تعرف  
- دون أن تقول لي - أن قتل النمل بالجملة خلال في حين أن قتله بالقطاعي  
هو وحده الحرام ؟ أم أن المسألة أخطر من ذلك ، وأن الله جل جلاله  
يكيل للناس بكيلين ، فيسبح للأمم الكيرات القويات من الجرائم  
ما يحرمه على أطفالهن الصغار الغالية المستضعفين ؟

وأسئلة كثيرة من هذا النوع شرعت في توجيهها إلى أمي التي  
استمعت إليها حيناً في صمت لتستوعبها ، فلما تم لها الاستيعاب قالت  
في إيجاز صارم :

- اجري اللعب برة 1

وصوت لتدفق المياه من الخرطوم على أرض الحديقة خلف البيت ،  
ثم ظهر جمعة بعد حين وهو يسحب الخرطوم على الأرض ويصوره  
هنا وهناك لزوم الري . حتى أرض المشي الرملية يجب أن يرشها لكي  
يثبت الرمال على الأرض ، وها هو قد أصبح على بعد متر واحد لا غير  
من طابور النمل .

طبعاً دست عليه أكثر من مرة دون أن أنبه ، طابور النمل الشغال  
طول الوقت عند سلم الشرفة ، وكان انتباهي على إحساس بالفركة  
العامة تحت قدمي ، فأنظر لأرى عشرات من النمل تهول هنا وهناك  
في حال من القوضى الطارئة ، غير النمل الذي يتلوى على الأرض وقد  
تحطم تحت ثقل قدمي الغليظة ، لكن الطابور في عمومهم يظل سائراً  
كأن شيئاً لم يكن ، يمر بالنمل المتلوي فلا ينظر إليه أصلاً ، أو ينظر  
إليه ولا يراه ، أو يراه فلا يبدي أي نوع من الاكتراث بالأمر . فالمسألة  
عنده حادثة يومية لا طلعت ولا نزلت ، وواحدة من المخاطر المألوفة  
في مهنة النمل .

و ذات يوم وأنا طفل كنت أرى النملة سائرة فأضربها بقدمي  
وأقتلها عامداً متعمداً ، شاعراً بأنني أمارس حقاً وأؤدي واجباً وأنا أقتل  
هذا الكائن المهين الذي يعترض بهذه الجرأة طريق كائن عظيم مثلي .  
ورأيت أمي أفعل ذلك فوبختني أشد التبويخ ، وحدثني بما ينتظر  
القساة أمثالي من الهذلة يوم القيامة ، ومن عذاب الحريق بعد ذلك  
في جهنم خالدين فيها أبداً . فلأني هذا الحديث رعباً وأقلعت تماماً  
عن قتل النمل ، بل وصرت أمشي مطأطئ الرأس نحو مواقع قدمي  
مخافة أن أقتل ، حيث لا أدري نملة مسكينة شاردة .



هكذا هممت بأن أصرخ فيه لولا أن أمسكت لساني في آخر لحظة ، إذ أن كلمة كهذه كفيلة أن تثير عند جمعة دهشة بالغة قد تبلغ حد الشك في قواي العقلية ، ولربما صرت أضحوكة في الحنة لزمن طويل . والنمل مهما طلع أو نزل لا هو من الثدييات ولا من الطيور أو غيرها من الفقاريات التي أمت إليها بعصلة القربى ، فلماذا أجعل نفسي هزواً في سبيل كائن لا تربطني به أي علاقة بيولوجية مباشرة ؟

فاكتفيت بأن أدرب وجهي عندما وصل بالخرطوم إلى طابور النمل ، متخيلاً المئات منه وهي تنفض على الأرض أو تطير في الهواء أمام سيل المياه الجارف . ونظرت إلى وجه جمعة فوجدته يائساً سعيداً يحرك الخرطوم يمينا ويساراً وكأنه مدفع رشاش يصوبه إلى طابور المخالفين له في الرأي . وما لم يفتنه بلقاء فتله بتقديم الحافيتين الغابظتين وبالخرطوم الذي يسحبه وراءه في رحلة الري المدمرة .

فتنهدت في استسلام وسكت ، وماذا كان في إمكاني أن أفعل ؟ هل تترك الحديقة تموت من العطش فداء للنمل وسائر الدواب الصغيرة التي تغرقها مياه الري ؟ وكان لما هون علي الأمر أن أياً من سكان الحديقة لم يبد أي نوع من الاكتراث بما حدث ، ما من غصن تحرك في تمارا أو ليمونة سقطت من زهيرة ، ولا البسة فارقت وجه القرد الضاحك في حوض البائسيه ، فلماذا أنفرد أنا بحمل كافة الشبهات على كتفي ؟ وابتعد جمعة بالخرطوم فابتعد معه صوت الماء ، ومن آخر الشونة ترامى إلي صوت بكاء الطفل الجديد الذي كان مستكناً في جوف أمه ، والذي نزل ليتربى بدلاً من شحاتة في عز جمعة . وكان بكاءه حتى هذه

اللحظة ما يزال بكاء ، لم يتحول بعد إلى تلك الإسطوانة المعقدة على كلمة آه .



## الفصل التاسع عشر

« لا تخرج ، يعني أخرج - كيف تعرف أن هذا الكائن ميت ؟ -  
عندما شعرت أنني أكره أمينة - بملقبة مازكة صوت سيده » .





إلا وهو ينظر إلى كائن ميت . اللانبض واللاحركة واللاوجود بأي شكل من الأشكال ، الكائن وقد تحول فجأة من حياة الخلايا النابضة إلى حياة الذرات الغامضة الخرساء ، سيان عنده الآن أن أسكب عليه الجاز وأشعل فيه النار ، أو أحضر ساطور المطبخ وأقسمه إلى شطائر صغيرة لزوم تغطط الحنة ، لأنه ليس هنا أصلاً . لم يعد فيبدو أكثر من صيغة نفي لكلب كان .

والحمد لله أنني سمحت له في ذلك اليوم بأن يتشمس عتدي ، كي لا يموت المسكين وفي نفسه شيء مني . وهو يعلم أنني كنت راعياً حقاً في أن أطعمه لولا رحلة المطبخ التي وصفتها له . وهكذا منحت في ذلك الصباح بعض ما يفتقده من الحب وأشعرته بأنه ليس نجساً بالقدر الذي يهتمونه به .

- شايك التجربة يا به ؟

صوت جمعة الذي وصل من خلفي ، وفي وجهه حزن أكبر من الذي رأيته فيه يوم مات طفله شحاتة .

فقلت له في غيظ صادق :

- أين كلب مين اللي يقتل كلب غلبان زي ده ؟

- الحرامية يا به بقوا بعيد عنك زي الواعث في الحنة . ربنا يسوقك يا عبد الله .

- عبد الله مين ؟

- الربال عشان ياخده في العربية .

وحرك ذيل جلبابه فأطار الذباب المتجمع على الجرح حولنا ، وبصعوبة منعت نفسي من أن أقول له : تعيش أنت يا جمعة ! وفي الداخل قابلتني أمينة قائلة بلهجة لا تخلو من شبهة شماتة .

قالت لي أمينة وقد رأني أزل السلام الأربع إلى الحديقة :

- أحسن لك ما تطلعش برة ع الرصيف ! خلي تمشيتك النهاردة جوة ! فادهشي قولها طبعاً .

- ليه ، فيه إيه ع الرصيف ؟

- أنا عملت اللي علي وقلت لك !

وأسرعت بالاختفاء من باب الشرفة قبل أن أواصل التحقيق معها . وكان واضحاً أن هذه دعوة صريحة لي كي أخرج إلى الرصيف ، وما كانت لتقول لي ذلك لولا خوفها من أن أكتفي بالتمشية في الحديقة ولم أر أول الأمر أي شيء غير عادي ، فالرصيف هو الرصيف من نفس الشارع الصغير الهادي . ثم اتجه بصري يساراً نحو باب الشونة المحاذي لباب الحديقة على بعد أمتار ، فرأيت تلك الكتلة البنية المكومة هناك على الأرض . نحوها خطوط لكي أتبين فيها جسم صوت صيده ، وكان ساكناً أكثر مما يناسب كلباً زائماً ، أعضاؤه المبعثرة حوله بلا نظام لا يمكن أن تنمي إلى غير كلب ميت . نعم كان فيبدو ميتاً ، وفي جنبه ثقب واضح للطلق الناري الذي أوداه ، ودم متكلس حول الجرح تجمع عليه الذباب .

صورة للسكون الذي هو سكون ، والذي لا يدرك الإنسان معناه



- قلت لك بلاش تخرج برة !

قلت لها في غيظ :

مكلك ميسوطة شوية !

- ح انيسط ليه بقي ؟

- كلب نجس وخلصتي منه !

- ولما أنت عارف كده زعلان ليه ؟

وكانت هذه واحدة من الحالات التي أبذل فيها جهداً كبيراً كي لا أكره أمينة . وفي تلك الليلة سمعت ما بين النوم واليقظة صوت طلق ناري ينبعث من داخل الشرفة ، ونحيل إلى أن البندقية التي أطلقت كانت مبحوحة الصوت نوعاً .



## الفصل العشرون

محاولة لتعريف الشجرة - اختفاء أكاليغا - هاو مع أوا .





## من هي الشجرة ؟

نعم أنا أحب أن أكلم الأشجار بين حين وآخر ، بل أستطيع أن أقول أنني أفخر بذلك ، ويدهشني أمر أولئك الشواذ الذين ينكرون علي هذه الهواية الخلاقة الجميلة . شيء واحد يزعجني في ممارستي لهوايتي ، هو ذلك الصوت الذي لا يرحل علي طول الوقت بقوله :

- أين هي ، ومن هي ، تلك الشجرة التي تكلمها يا سيد !  
إذ أنني أكلم الشجرة فأوجه بصري إلى كتلتها الكبيرة الخضراء المكونة من أوراقها ، ومن ثم يعيد السائل صياغة سؤاله :

- هل تعتقد يا حضرة أن الشجرة هي أوراقها ؟  
فأجيب بالنفي طبعاً ، لأنني واثق من أن الشجرة ليست - كما خيل إلي فعلاً لفترة ما - أوراقها . لأن الأوراق تشيخ وتصفّر وتبدل ، وتسقط على الأرض لكي تدوسها الأقدام بقطعة محزنة . والشجرة نفسها ما زالت قائمة في مكانها بجذعها وأغصانها ، عارية عن أوراقها حقاً لكنها ليست شديدة الاهتمام بهذا العري .

فيعود سائلي بقوله بتهرة ساخرة مسترة :

- هل هي إذن جذعها وأغصانها ؟

فأجابهل سخرته وأجيب بالنفي ثانياً ، إذ أعلم أن هذه الأشياء لا تزيد عن كونها الهيكل الخشبي المقابل للهيكل العظمي عندما .

وطاقم المواسير الذي ينقل الغذاء إلى الشجرة الحقيقية المجهولة .  
- ما رأيك إذن ( يواصل سائلي سخرته ) في أن الشجرة هي زهرها وثمارها ؟

فتعريني الفكرة بأن أجيب بالموافقة ، لكنني مرة أخرى أجيب بالنفي فهل أنا قد أكلت زهرة عندما ملأت بطني من عصير بنزهيرها ؟ وهل سلبت ثماراً شيئاً عندما ملأت صدري من عيرها المكر ساعة الغروب ؟

- لم يبق إذن إلا أن تكون الشجرة هي جذورها ، فما رأيك ؟  
لكنني أعلم طبعاً أن الجذور ما هي إلا مخالب لتثبت الشجرة في الأرض ، ومصاصات لما يزخر به جوف التربة من عصائر الغذاء . وهذا يصل الصوت السائل إلى ذروة سخرته فيقول لي متخلعاً :

- إذن فأنت يا سيدي تكلم الأشجار بدون أن تعرف من هي الشجرة !  
فاغتظت مرة وقلت له :

- هل أفهم من هذه الأسئلة المتعالية أن سيادتكم تعرف من هي الشجرة ؟  
فترث لحظة في الإجابة ثم قال بصحكة سوقية صغيرة :

- ها أو أو مع أو :  
أو لعله قال :

- ها أو أو مع مع .  
ولأنني لا أظن أن هناك فرقاً هاماً بين القولين فقد نسيت الأمر كله .

وذاث يوم قادتني قدماي وأنا أتمشي إلى حيث تقوم أكاليفا ، عسى أن تكون قد وجدت طريقة تفصح بها عما تريد أن تقول . وهناك كانت الحاجة الكبرى في انتظاري ، وهي أن أكاليفا ليست موجودة هناك أصلاً ! كأنما انشقت الأرض وابتلعها فلم تترك منها إلا عصا خشبية



جافة مرشوقة في الأرض بارتفاع ركبتي . وغير بعيد رأيت كوماً كبيراً  
من الألوان الفاقعة التي تؤلف أوراق ليفا ، مقطوعة مع الأغصان التي  
تحملها ومع أكثر من نصف جذعها ، وملقاة في الركن تنتظر عربة  
عم عبد الله .

مدى لحظة فلتت أن جمعة قد أصابته لومة مفاجئة فقطع الشجرة ،  
فتأديته من خلال السور النياقي حتى رد علي فقلت أسأله !

- أنت اللي قطعت ليفا يا جمعة ؟

ولم يكن يعرف اسم الشجرة فقال !

- ليفة إيه يا بيه ؟

فقلت مصححاً :

- قصدي الشجرة أكاليفا ، أنت اللي قطعتها كده ؟

فقال متضحكاً من جهلي :

- أنا ما قطعتهاش يا بيه ، أنا قرطتها ! عشان تكبر وتفرع وتبقى حلوة .

فقلت في غيظ :

- ما هي كت مفرعة وحلوة .

- لا يا بيه ، دي تفرع أد كده خمس ست مرات . اصبر عليها حبة

يا بيه ، دي ح تبقى شربات خالص !

فقلت مازحاً :

- أنا افكرتها زعلت الحاج ف حاجة قال لك أقطعها !

فقال في بلاهة !

- الحاج ؟ !

- آه ، يمكن جه يدخل بالمقطورة وقفت في مسكه !

فلم يجب جمعة وقد استعصى عليه الفهم ، لكنه كان قد أثبت

بالدليل العملي الحاسم أنني أستطيع أن أقطع جميع أغصان الشجرة  
بجميع أوراقها ومعظم جذعها ، وبالرغم من ذلك لا أكون قد قطعت  
الشجرة !

لم تمت ليفا كما خيل لي . أو لعلها ماتت وبعثت من جديد .  
من جوف الخشب الأصم في العود الجاف بدأت تنبثق الأوراق الخضراء  
من جديد ، صغيرة أول الأمر لكنها صارخة بنشيد الحياة . فهناك شيء  
في جوف الشجرة قد أقسم - مهما مزقت أوصال الشجرة - يميناً مغلظاً  
على البقاء . شيء لا أظن أنني سأنجح في معرفته أبداً ، لا أنا ولا ذلك  
الوغد الذي يسخر مني بأسئلته السخيفة .

فقلت لتساراً وأنا أربت على جذعها :

- يعني يجرى حاجة يا تمت لو تقولي لي أنني مين ؟

فما من عود تحرك فيها ولا ورقة ، فاستدبرت إلى زهرة بأمل ضعيف :

- ولا أنني يا زوزو ؟

فكأنني بالنسبة لها ما قلت شيئاً ، ومن بحر الألوان في حوض

البانيسه اندفع جسم صغير أبيض للفراشة اللطيفة البيضاء . ومع رفيف

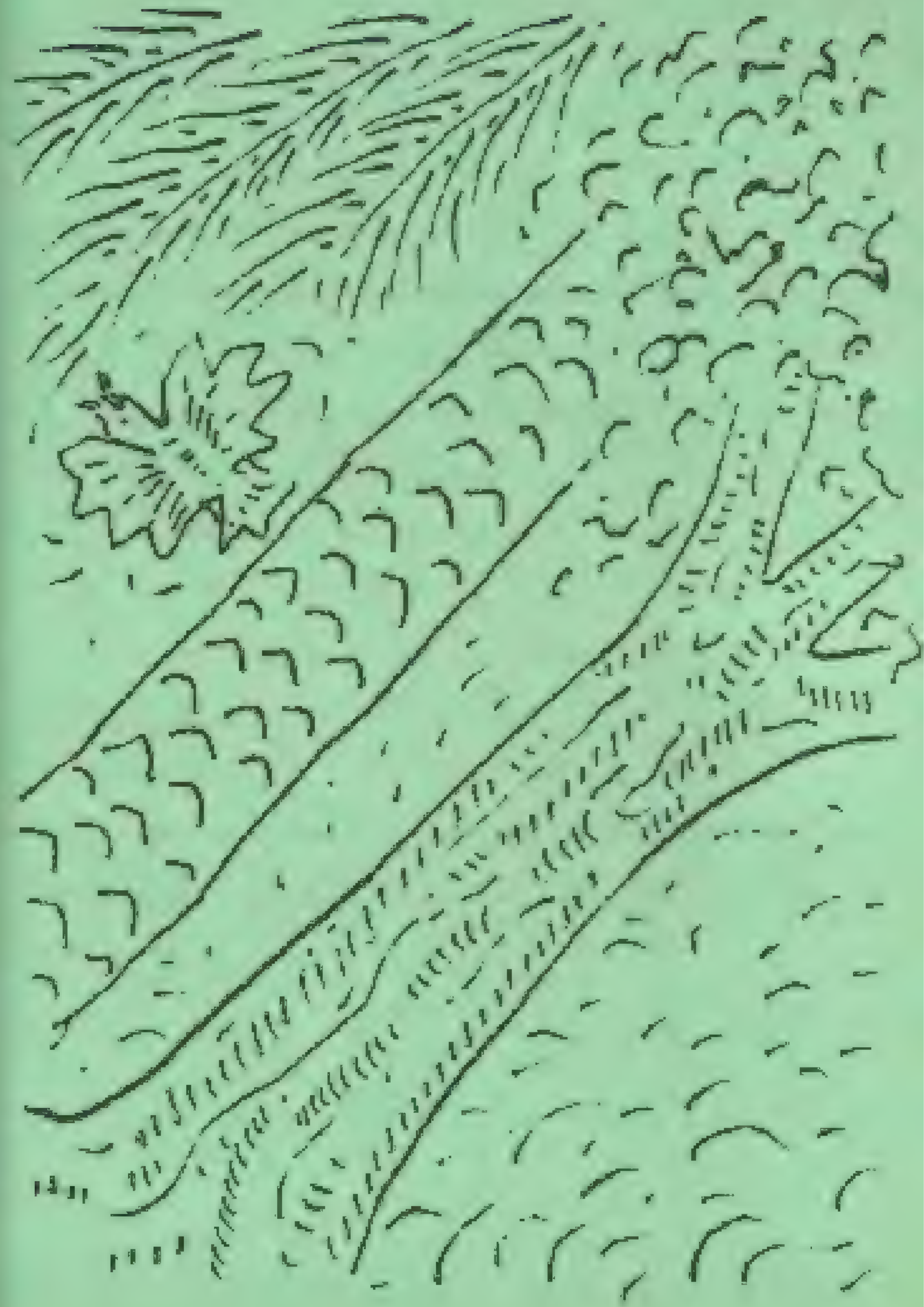
أجنحتها المتعددة خيل إلي أنني أسمع صدى صوت يقول :

- ها أو هع هع أو .



## الفصل الحادي والعشرون

نقطة مباشرة من روائح الجنة - دعوة ولية ساعة مغربية - هل  
أكلت نحلة عاشقة؟ وليمة متعددة الألوان - إنذار نهائي - يوم السقوط  
العظيم





هذا الوقت قبيل الغروب هو المفضل عند تمارا لكي تكشف عن كنوزها الكامنة ، وتنشر على العالم أركى ما عندها من نفائس العطر . ولعطر تمارا في الأنف لذعة مثل لذعة العسل في الفم ، فإذا الحديقة كلها بحيرة عسل ومسل . حتى موني جذبتها الرائحة فأقبلت وجلست تحت الشجرة تتشمم الهواء ، منصبة إلى ما تبقى في الدنيا من زقزقة خافتة للعصافير .

في فستانها الرمادي خرجت أمينة إلى الشرفة ، سائرة على مهل بالسبيحة الطويلة ذات الحبات الصغيرة السوداء . ومثلما فعلت القطعة فعلت أمينة ، مدت أنفها لتلمأ صدرها بالعطر الزكي الحراق وارتسمت على شفتيها ابتسامة راضية ، إذ كانت أمينة واثقة من أن رائحة تمرحة بالذات ما هي الا نفحة مباشرة من نفحات الجنة .

على النجيلة سارت حتى وصلت إلى الكرسي الأخضر فجلست عليه تواصل التثمة بالأدعية والصلوات . وفي الفضاء الشاحب فوقنا ترددت أغنية الكروان الحزينة ، تذبذبت أنفاسها حيناً قبل أن تنوب في قسم الأشجار العالية .

صوت عصفور حط على غصن من أغصان زهيرة ، بل هما في الحقيقة عصفوران ، حوار ساخن بينهما ومشاحة لا تليق بهذه اللحظة

الهادئة القواحة بخطر الجنة . فارتعدت شفتا موني مع شاربها كالمعتاد في مثل هذا الظرف ، وتوتر جسمها كلها في حالة من التأهب الوحشي الصامت . فهذه نفمة من نفحات العصافير تعلمت القطط أن تحبها منذ فجر التاريخ ، اللحظة المبشرة بسقوط أحد المتصارعين صريعاً . وذات يوم سمعت موني هذه النفمة وهي في شبابها ، وكانت تجلس هنا كما تجلس الآن ، فإذا بها تتحول فجأة من قطرة إلى سهم مارق ، تتسلق جذع الشجرة وتتغلغل بين أغصانها ، وفي لحظة تعود بأحد العصفورين وقد أخرجته من عز المعركة ونزلت به لتأكله . كان ذلك زمان طبعاً ، أما اليوم فليس عندها سوى أن ترعش شاربها وتموء في مرارة .

وبقع من الألوان تراقص في السماء ، وزقزقة هامسة لطيفة تبعث منها . سرب من اليمام وليس بيمام ، يظهر دائماً في الصيف في هذا الوقت قبيل الغروب . تتقلب الطيور إذ تطير مثل الطائرات في يوم استعراض ، ومع تقلبها يتحول لونها من الأبيض إلى البرتقالي إلى الأخضر . سألت جمعة يوماً عن اسم لهذا الطائر فقال في بساطة :

- ده الوروار يا بيه .

فسأله بريبة !

- بعني إيه وروار ؟

- عشان بيورور يا بيه ، موش سامعه سيادتك ؟

كنت أظنه يزقزق ، فإذا به في حقيقة الأمر يورور . وفي موسوعة مبسطة عن الطيور عثرت فعلاً على طائر باسم الوروار يحمل صفات هذا الطائر ، ويسمى أحياناً باسم آخر هو آكل النحل . فهو لم يطر إلى تلك الأعالي كما نحيل إلى من قبل لكي يمارس الحب أو العبادة ،



بل لكي يظفر بوجبة خفيفة قبل أن ينام . فهو يعرف أن النحل قد سبقه إلى تلك الأعالي لكي يتزاوج بعيداً عن تطفل الكائنات الأرضية ، وهناك في الأعالي الصامتة يستمع الوروار الجائع وهو يتقلب بالثام كل ما يصادفه من التحل الولهان .

ولقد سمعت الكثير عن دعوة الولية في ساعة المغربة ، لكن هذه هي أول مرة أراها تستجاب أمامي بهذه السرعة . في آخر الحديقة سمعت صوتاً مكتوماً يرتطم بالأرض ، وهناك رأيت جسماً صغيراً يقفز ليظهر فيسقط ، ويقفز ثانياً فيسقط ، ولونه يتغير مع كل قفزة من الأبيض إلى الأخضر إلى البرتقالي . وفي لحظة واحدة لم أجد موني بجاني ، وكانت أشبه بحوت غطس في البحر بجاني وقب هناك عند الوروار الساقط . وفي اللحظة التالية كانت كل تلك التشكيلة من الألوان كتلة واحدة بين أنيابها ، وكانهم المارق انطلقت به في مجاهل الحديقة وراء البيت . بدون أن أراها تخيلت أنيابها وهي تعمل بالنتف في الريش الأخضر والبرتقالي ، ثم وهي تغوص في اللحم الطري الساخن الساقط لقوره من السماء وفي جوفه ثروة إضافية من النحل الطازج . وريش كثير ملون سوف أجده صباح الغد على أرض الحديقة ، وربما متقار ومساكان ، بغير الوروار الذي تنتمي إليه كل تلك الأشياء . إلى الأعالي الصامتة طار الوروار لكي يظفر بأكلة نحل طازج ، وإلى الأرض سقط لكي نظفر موني بأكلة وروار طازج . لا لوم على موني فهي قطعة ، وما هي إلا ولية طلبت من السماء عصفوراً يترقق فأهدتها ورواراً يورور . وغير متوقع منها قبل أن تأكل الطائر أن تذبحه وتصفي دمه . تلك الإجراءات الخاصة بالمتحضرين أمثالي .

في المسجد القريب دوى الميكروفون بأذان المغرب ، فنهضت أمينة

لتلي النداء . لكنها توقفت حين سمعت صوت جمعة المبحوح من خلال السور .

— مساء الخير يا يه ، أنا عندي خبر ح يزعل سيادتك ، بس أنا عبد المأمور .

فلعب القار في عبي ، إزاء هذا الصوت المنذر الذي لم أعهده من جمعة .

— بشرفي يا يه أنا كان ح ينقطع عيشي أمبارح . الحاج جه زي النوبة اللي فاتت ويرضك حب يدخل بالمقطورة ما عرفش .

وتريث فقلت في صبر نافذ :

— انكلم وخلصني .

فقال جمعة في إيجاز حاسم ؟

— الشجرة ح تنقطع بكرة يا يه . أنا بس حيت إيدي سيادتك فكرة ، وأنا عبد المأمور .

نظرت إلى أمينة فوجدتها قد ركزت بصرها عليّ لتعرف كيف سأبدو وقد سمعت ما سمعت ، ولا بد أنها رأت منظرًا محزوناً حقاً ، وإن كان مكتوباً له أن يتحول في لحظة واحدة إلى منظر مضحك ، إذ ضربت بقدمي على الأرض بقوة واضطجعت إلى الوراء على الكرسي . فإذا بي أمبل فجأة إلى الخلف وأشرع في رحلة جديدة نحو أرض الوطن . جالساً كما أنا على الكرسي القش العتيق الأصفر . بسرعة تقدمت من الأرض الطيبة حتى ارتطمت بها ، بعد محاولة فاشلة لاصطياد جذع تمارة كما فعلت في المرة السابقة .

كنت دائماً إذا وقعت أحب أن أنهض بسرعة ، لكن يبدو أن الدنيا قد تغيرت ، إذ أردت أن أحرك ساقي لكي أعتدل بالكرسي فتعذر

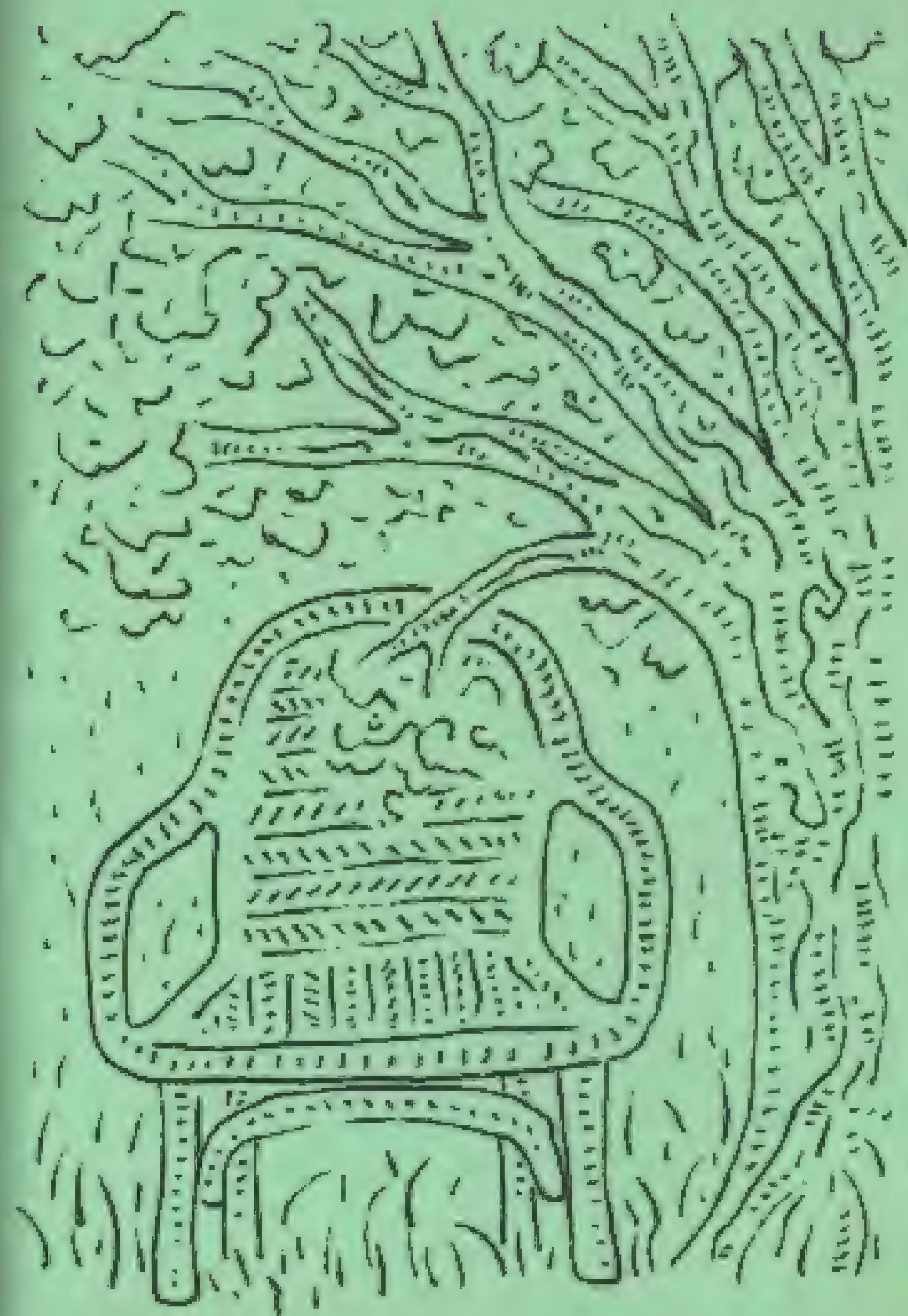


ذلك عليّ تماماً ، لا الساق اليمنى طاولعتني ولا اليسرى . فرفعت نفسي  
بالعافية حتى اعتمدت بعرفقي على الأرض ، ورأيت أمينة تضع سبحتها  
السوداء على الكرسي الأخضر وتأتي بسرعة لكي تنقذني . فانحنيت لكي  
تمسكني من الأبطون وتعيني على النهوض ، وبقوة جذبتني إلى أعلى  
وبسرعة ، فما كادت تفعل حتى تراخت قبضتها عني وتركتني أسقط  
من جديد . وبداها رفعتها لكي تضغط بهما على جانبي رأسها ، مترنحة  
تتأوه بصوت مكتوم . خلفها مدت يدها لتلمس الكرسي الأخضر فلم  
تجد إلا طرفاً منه ، وهمت بأن تجلس عليه فانزلت منه إلى الأرض هي  
والسبعة السوداء .

سقطت جالة أول الأمر ثم ارتمت على جنبها فوق النجيلة ،  
متكورة متفرزة ترتعد . ونجحت بعد حين في التخلص من ورطتي مع  
الكرسي الأخضر فأسرعت إليها وانحنيت عليها لأفحصها ، أمسكت فيها  
جسماً بارداً كالثلج يتصبب عرقاً ، منخفضاً على الأرض مثلما انتفض  
الوروار الساقط منذ قليل .



الفصل الثاني والعشرون





طبعاً أتمنى أن أراها الآن ترفرف أمامي ، الفراشة البيضاء التي تزور الحديقة كل يوم ، لكن هذه مطالبة سخيفة للحياة بأن تغير من نظامها من أجل نزوة رجل عجوز مثلي . تلك الفراشة لا تأتي إلا في الصباح والشمس تغمر الدنيا بدفئتها وضئائها ، فما الذي يأتي بها الآن والشمس تقترب من الغيب ؟ إن النحل هو الذي يطير في هذا الوقت لكي يتزوج بعيداً في الأعالي الصامتة ، والوروار يتبعه لكي يأكل ما نيسر من النحل المتيم ، على صوت أغنية للكروان تلوب في تسم الأشجار العالية . وهذا الأخير بدوره ما أظنه قد طار وغنى لغرض أنيل بكثير من ذلك الذي من أجله طار الوروار وورور .

في الشرفة على الكرسي القش الأصفر بعد أن ظهرته من هباب الياسين . وبعد أن سمحت لنفسني بأن أصب في الكوب الخرف النبي شيئاً من نبيذ عمر الخيام الأحمر ، قبل أن يملأ كأس العمر - كما قال صاحب النبيذ - كف القدر . الكوب على السور الحجري للشرقة ، وفي الشرقة تطيب الجلطة في هذه الأمسيات الحارة حيث تتحرك بين حين وآخر نسمة متعبة ولا تضع للغور بين أغصان الشجر ، وحيث تمتزج أنفاس ياسمينية المهذبة بأنفاس تمارا الخليفة في توازن معقول . وناظراً إلى تمارا التي بدأت تقاصيلها تخضي في الضوء الذي أخذ يشحب ، لا أبعد مناصاً

من أن أعترف بأن قلبي لم يصف بعد من نحوها كل الصفاء .

نعم أعرف أنه لا يجوز لي وفقاً لأي نوع من المعايير أن ألقى على شجرة تبعة كل ما حدث لي ولأمانة منذ أسابيع ، لكننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن تمارا لم تكن في أي يوم من الأيام مجرد شجرة ، إنما هي صديقة بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعاني ، ومنها يتوقع الإنسان كل ما يتوقع الصديق من الصديق لا سيما وقت الشدة . فإين كانت صديقتي - أو على الأقل أين كان جذعها ، ساعة تلك السقطة المأساوية التي تحاقت بنا ونحن نجلس تحتها وفي حماها ؟

بل أنني لا أستطيع - وهذا هو الأدهى - أن أوم ذلك الكائن الذي كان هو السبب الرئيسي والفاعل الأصلي في المأساة كلها ، وهو الكرسي القش العتيق الأصفر . مدى لحظة قررت أن أومه فإذا بي أسمع من ناحيته صراخاً مدوياً يقول :

- يا ناس خلوا ف قلبكم رحمة ! حرام عليكم يا مسلمين ! عشرين سنة وأنا شايلك على ضهري ما قلتش بم ، وبرضه موش عاجبك ؟ عشرين سنة وأنا مستحملك صبح وظهر وليل لما هديت حيلي قبل الأوان ، وجاي دلوقت تقول لي أنا غلطان ؟ انقي الله يا مفتري ! خطف عينك حصوة ملح يا ظالم ! خلي ف وشك حبة دم يا بارد !

فأمسكت من فوري عن لومه وقد فهمت مشاعره ، وبكل الحنية الممكنة رفعتني عن الأرض وأنا أطيب عليه ، وربما أكون قد قبلته أيضاً . ثم حاولت أن أمرنه على أن يصلب حيله ليمارس وظيفته كمالف عهده ، لكنه أعلن عجزه التام عن القيام بأية وظيفة من وظائف الكرسي ، حتى بدون أن يكون قشاً أو أصفر . فما كدت أرفع يدي عنه حتى ترنح وسقط كالقتيل فوق النجيلة المخضراء الضاحكة من خبيته . فلم



أجد ما أفعله به سوى أن أسند ظهري إلى جذع تمارا وأتركه هناك مثل خيال المائة متظاهراً بأنه كائن حي . ولكي لا يشعر بالوحدة تركت بجانبه كرسي أمينة القش الأخضر ، الذي لم يعد يجده من يستخدمه بسبب غلظة ذلك الدكتور الوغد الشبيه بالقار .

إذ أصرت أمينة على فكرة الكونسولتو ، فأحضر لها الدكتور فتحي أخصائيين من زملائه يثق فيهما ، وكان أحدهما يديناً أحمر اللون مرحاً قال لأمينة وهو يفحصها :

- عيني عليكى باردة يا حاجة ! يا ريت صحتي زي صحتك !  
وطلبوا كل ما يمكن أن يتخيله الإنسان من أنواع الأشعة والتحليل ، واجتمعوا حولها ليفحصوها فقال الدكتور فتحي في سرور :

- الحمد لله ، ما قيش أي حاجة م اللي كنا خايفين منها .  
وأيد الطبيب السمين رأيه قائلاً :

- ألف مبروك يا حاجة ، براءة من كله !

وهنا تدخل الطبيب الثالث الشبيه بالقار بوجهه الأسمر المشحوب وشاربه النافر ، فضحك ضحكة جافة لا طيبة وقال ساخراً :

- هها ، ده على كلام أجهزتنا !

فلم يعلق على كلمته أي من زمليه ، وأدرك هو غلظته فتحول إلى الكلام بالإنجليزية . وملئوا الروشتة بأسماء الأدوية وجهاً وظهرأ ، وقالت هي بعناد أعجيني !

- موش يس أعرف بتعالجوني من إيه ؟ !

فقالوا لها إنها الأعصاب المتعبة التي لم تجد ما تعبر به عن نفسها سوى تلك الدوخة التي تشكو منها ، وما هي إلا أيام من العلاج والراحة في السرير والغذاء الصحي حتى تسترد صحتها وتنهض كالحصان .

- سي نس ! سي نس ! سي نس !

صرصار من صراصير الحداثق أرسل صغيراً قصيراً مستطعلاً ، فلما لم يسأل فيه أي صرصار آخر فجعل من نفسه وصكت .

- كورور ! كورور ! كورور !

صوت العجوز موني وهي تقرأ خبر بعيد ، وأمينة تؤكد أنها قراءات ذات طابع ديني ، مثبتة بذلك أن الآلهة باسميت ما زالت تعيش بيتنا . كربية لربة السحر إيزيس .

- سي نس ! سي نس ! سي نس !

صغير جديد يحرب به الصرصار حفظه إذا كان هو نفس الصرصار ، فما كاد يطلقه هذه المرة حتى تجاوب معه للفور كورال من أصوات الصراصير ، آحاد منها أول الأمر ثم عشرات ، ثم مئات ثم آلاف . العقل العام للصراصير وقد قرر أن يتعاون جميع أفرادهم فجأة وفي نفس الوقت في ترديد نفس الأغنية .

ولعن الله مرة أخرى على ذلك الدكتور ، إذ سرحت أمينة ببصرها في ملاءة السرير البيضاء وهي تداعب سبحتها الطويلة السوداء ، ثم توقفت فجأة عن الشيح لكي تقول متسائلة :

- هو موش يقول ان الكلام ده على أجهزتنا ؟

فقلت مستعظاً :

- هو مين ؟

- الدكتور .

ووصفته وصفاً لا يترك أي مجال للشك في هويته ، ثم واصلت أفكارها بقولها :

- يعني ممكن أجهزتنا دي تكون غلطانة .



فلم أعلق بشيء بينما استرسلت تقول :

- يعني ممكن أكون عيانة وعيانيا موش طالع في أجهزتنا !

فأصريت على الصمت ، بل إنني غادرت الحجرة متعللاً بسبب  
أو آخر ، وأن كنت أعرف من خبرتي بأمانة أنها لن تترك الأمر يتوقف  
عند هذا الحد . فلما كان اليوم التالي أفرغت ملعقة دواء في فيها وهزت  
رأسها متخلصة من مرارته ثم قالت :

- يعني ممكن جداً أكون عيانة بمرض خطير وما حدش داري !

فلما رأيته مصراً على الصمت رجعتني بنظرة غيظ وقالت !

- ما بتدش ليه ؟

قلت متهدداً :

- أقول إيه لواحدة عاوزة تعي نفسها بالعاقبة ؟

- أنت موش سمعت الراجل بودنك ؟

- أيوه سمعته ، وممكن جداً لجهاز ولا اثنين انهم يغلطوا ، لكن موش معقول

كل الأجهزة تغلط نفس الغلطة ف نفس الوقت !

فقلت مقابحة :

- مش معقول ليه ، ممكن !

وسكنت إلى اليوم التالي ثم قالت لي بصوت أكثر من المعتاد نعومة :

- أسألك سؤال وتجاوبني بصراحة ؟

فتلقت قلبي بين أضلاعي ، إذ كنت أعرف جيداً ما هو ذلك السؤال .

وواصلت هي باسمة :

- بس ما فيناش من زعل .

قلت في بأس :

- ربنا ما يحيب زعل .

فترددت لحظة حتى استجمعت شجاعتي وقالت :

- زعل مني لو سافرت وسبتك جمعتين قلانة ؟

ثم أضافت بسرعة مستوثقة :

- زعل قوي يعني ؟ !

قلت وأنا أعرف الجواب :

- تسافري على فين ؟

- وأنا لي مين غير حبيبي حمادة ؟

وشرحت لي كيف أن تذكرة الطائرة معها ، والإقامة هناك عند

حييها ( أرجو أن يكون في أمريكا مقابل غذائي للقول والطعمية ) ،

ولتغطية المصاريف الطيبة ستبيع اسورتين وعددا من الغوايش المركونة

عندها في قاع الدولا ب بلا فائدة فإذا يتقصها ؟

- والنبي لولا حامله هيك أنت لسافرت النهاردة قبل بكرة ! أشوف

الأجهزة اللي هناك ح تقول إيه واطمن على روحي .

فتذكرت ذلك العالم النفسي الذي اتهمني بأنني أتمنى موتها لأنني

أسرف في القلق عليها ، فإذا يقول اليوم لو رأي أقفل العكس فأسرف

في الاستهانة بأمر مرضها وأحرمها من رحلة علاج تشبهها حتى لو كنت

أعرف أنه لا جدوى منها ؟

قلت في مزيج من الإخلاص والاستسلام :

- ما تحمليش همي يا أمينة ، سافري إذا كنتي عايزة .

وفي حجرة النوم الصامتة ، ولأول مرة منذ سنوات طويلة ، وجدتني

وحدتي أشبه بطفل صغير خائف . والبسمة التي تغالب الظهور في صورة

إبراهيم على الحائط حبل إلي أنها قد ظهرت فعلاً ، وبين النوم واليقظة

أتاني صوت الولد المفقود يقول :



- أنت له زعلان يا بابا عشان ماما جاية لي ؟

قلت له في دهشة :

- أنت مين قال لك انها جاية لك ؟

- موش ركبت الطائرة النهاردة الصبح ؟

- آه لكن موش جاية لك ، دي رايحة لأخوك في أمريكا . هي الناس

بتسافر عندكوف طيارات ؟

- أنا ما قلتش كده !

- آمال قلت إيه ؟

- ولا حاجة !

وراح يتسم لي عن أسنان بيضاء لامعة وسط وجه تحول فجأة

إلى فحمة سوداء .

- آووو ! آووو ! آووو !

صوت غليظ علا فجأة على صوت الصراخ ، صوت ضفدع

أرجو أن يكون صديقي ضفدوع . وللغور تبعته سائر الضفادع وانصمت

بالغناء إلى هذا الحفل المفتوح ، صونها الغليظ الأجوف هو خير خلفية

للمسمة الصراخ . أرجو أن تكون بركة المياه التي وجدتتها الضفادع

مكونة من ماسورة مياه مكسورة لا من طفح المجاري ، وأن كان مستبعداً

طبعاً أن يتأثر الصوت بتوعية الوسط الذي ينبعث منه .

وهذا الصحيح كما يشعرون هو نداء من الذكور إلى الإناث بقصد

اخواتهن ، الأمر الذي إن صح فهو دليل على أن ذوق الضفدعة غريب

نوعاً . وعلى أي حال فمجدير بنا ونحن نتوسع في تطبيق الأفكار الفرويدية

على الجنس البشري ، أن نقتصد في اقحامها على أجناس أخرى محترمة

مثل جنس الضفادع .

- كرررر ! كرررر ! كرررر !

ربييه إيزيس تحبيك يا أمينة ، وتدعوك لك دعوة مخلصه اعتقد

أنك محتاجة إليها ، حيث تعيشين وسط شعب - إذا صدقت أفلامه -

نصفه لصيخ وقطاع طرق والنصف الآخر يجري تحت سيل من

الطلقات النارية التي لا تنقطع . وأرجو أن يكون حمادة موجوداً معك

عند اللزوم ليساعدك على الجري ، في البلوفر الصوف الأزرق الذي سهرت

بجاني تنسجيته بجانب المدفأة المشتعلة . ترى هل نشترك مرة أخرى في

تلك الجلسة الطيفة الدافئة ؟ ولماذا لم تكتبي لي حتى الآن إلا ذلك الأخطار

الموجز بأنك قد وصلت إلى لوس انجيلوس بالسلامة ؟

- طاخ ! طاخ ! طاخ !

صوت يبدو أنه يحتاج إلى وقت طويل لكي يُدْفَن في أعماق عقلي

الباطن مع سائر الجثث المدفونة هناك . أمينة نفسها بكّت يومها حيث

جلست على سريرها ، وقالت بصوت تخنقه العبرات :

- صحيح ما باحبهاش لكن بتقطع قلبي !

صوت طرقات الناس على جذع الطويلة الرشيقة رينا في ذلك اليوم

المشوم ، ليكسروه . فلما كسروه ألقوا بحبل طويل على عنقها ليختنقوها ،

وبه راحوا يجذبونها لتسقط حيث قدروا لها من أرض الشونة . لكنهم

أخطئوا في حساباتهم طبعاً ، وما كان لرينا أن تسقط حيث قدر لها

المجرمون . هي مالت وفقاً لرغبتها الخاصة نحو البناء الأصغر المشفق ،

متجهة مباشرة إلى النخلة الغبراء رفيقة عمرها في الشونة ، أحاطتها بغصونها

واحتضنتها وكأنها أقسمت بسماً ألا تصل إلى الأرض إلا بها . وفرة

واحدة من المقاومة لم تظهرها النخلة العتيقة كأنها كانت تتطلع من زمان



وبشوق إلى هذا اليوم المفترج الذي تريح فيه جذعها المائل على صدر  
أمها الأرض .

أما عنك أنت يا جمعة فيؤسفني أن أصارحك بأنه لا يسعني إلا أن  
أضحك عندما أحاول أن أتخيل شعورك وقد فوجئت بنفسك طريحاً  
على الأرض وفوقك شجرتان أحدهما طويلة رشيقة وكانت مهندمة ،  
وفي حضنها نخلة غبراء تتدلى منها سباطة بلح أحمر تناثرت حباتها على  
أرض الشونة ، فراح الرجال يلتقطونها ويقرشونها وهم يحاولون تخليصك  
من الشجرتين .

حادث كان ممكناً جداً أن يموت فيه جمعة ، بل الغريب حقاً أنه  
لم يموت . فمن هنا يمكننا أن نفهم المزيد عن طبيعة الرشيقة رينا ، كيف  
أنها لم تكن رشيقة وجميلة فحسب وإنما كانت في الوقت نفسه - على  
عكس معظم الجميلات - رحيمة القلب أيضاً - صحيح أن جمعة قد  
طاب نفساً بأن يذهبها بعد تلك العشرة الطويلة ، لكنه كان مضطراً إلى  
ذلك في سبيل لقمة عيشه . فكان كافياً في عرف رحيمة القلب رينا -  
بدلاً من عقوبة الموت القاسية - أن تكسر له رجلاً واحدة لا غير ،  
ورجله اليسرى لا اليمنى زيادة في الرأفة به .

أسبوع واحد قضاه جمعة في المستشفى ثم خرج بتلك الساق المجبسة  
البيضاء . فذهبت لأزوره في الشونة حيث وجدته جالساً أمام البيت المشقق  
ممدود الساق وحوله عدد كبير من العصافير تنقر في الأرض مع الضراخ  
التي ربما كانت بينها تلك الفرخة التي تريد دائماً أن تبيض . ومن داخل  
البيت ترامي إلى صوت الطفل الجديد وهو يبكي ، وبكاؤه قد بدأ يتحول  
إلى ذلك الصرير الصديء القديم ، وإن لم يصل بعد إلى درجة الثبوت  
على كلمة آه .

وقال لي جمعة باسمياً وهو يتحسس ساقه المجبسة !

- طب والنبي أنت فيك شيء الله يا ييه !

فسرتني الكلمة وإن كنت لا أعرف سببها ، واسترسل قائلاً :

- ده ذنب الشجرة اللي سيادتلك بتحبها ! دي جزاني عشان قطعها !  
وبالرغم من سخافة الفكرة فقد أشاعت في نفسي نوعاً من السرور  
الخفي ، واسترسل :

- ولما جيت أقطعها النوبة اللي فاتت ، تاني يوم شحانة مات ! والحمد  
لله اللي جت على أد كده ، ده لولا ان قلبك طيب كنت رحت فيها !  
وسوف يحتاج إلى عكاز طيب لمدة لا يعلمها إلا الله ، وأرخص  
عكاز طيب في السوق ثمنه عشرة جنيهات . وكان يعرف بخبثه القطري  
أنني محتاج إلى أن أدفع له نصف هذا المبلغ على الأقل ، لكي أتخفف  
من مشاعر الذنب التي نجح بكلامه في أن يفرسها في نفسي .

- كرررر ! كرررر ! كرررر !

لا شك يا موني أنها كانت لفظة حلوة منك ، أن سمحت لصوتك  
الحبيب بأن يبقى معي في وحدتي . نعم أعرف أنه كان أفضل عندك  
أن تدفني تحت زهرة وتصارا لتكوني معنا دائماً كسالف العهد ، لكنني  
كرهت لك أن تكوني موطن الأقدام طول الوقت . وأنا واثق من أنك  
ستكونين سعيدة هناك في ذلك الركن الأمين بجانب ليلى ، إذ أشعر بأنك  
أنت الأخرى - لا تكذيبي من فضلك - كنت تريدن أن تقولي شيئاً .  
- أنا عارفة أنني ح اموت قبلها .

هكذا كانت أمينة تحب أن تقول دائماً ، والحمد لله الذي خيب  
ظنك يا أمونة . وإذا سألتني كيف وقع الأمر فأنا في الحقيقة لا أعرف  
على وجه اليقين . كل ما أعرف هو أنني كنت قد قطعت الطريقة الطويلة



ووصلت إلى الصلاة في طريقي إلى المطبخ لكي أعمل الشاي ، إذ حانت مني لفتة نحو المدفأة فرأيتها ملقاة هناك على البساط النبيتي العتيق . نعم كانت ملقاة هناك لا نائمة ، إذ كانت موني تعرف دائماً كيف يجب أن تنام . كانت تضم ساقها وذراعها وذيلها وتريح ذقنها البيضاء على ساعدها الأسود ، وأذناها مطرطقتان حتى وهي في عز النوم . أما هذه المرة فكانت القطة ساقة هناك لا نائمة ، مترامية الأطراف بدون أي محاولة نظام فتقدمت نحوها متلصصاً لسبب لا أفهمه ، ومرة أخرى وجدتني أجابه ذلك السكون الرهيب الذي خبرته من قبل في صوت سيده - اللانبض واللاحركة والانتماء نهائياً إلى نسيج هذا العالم الحي . فكأها متباعداً مثل فكي تمساح ، وأنيابها بارزة وفمها كهف كبير مظلم . مستحيل طبعاً أنها كانت تريد أن تلتهم شيئاً ، ومستبعد أنها كانت تعوي ، فما من تفسير للأمر إلا أنها كانت تشاءب . في جسمها الواهن المتعب شعرت بديب أقدام الموت الباردة فقصدت إلى المدفأة تشد الدفء ، مؤمنة حتى النهاية بأنها قادرة على إشعالها بقوتها السحرية ، هي الالهة باسيت روح إيزيس ربة السحر وهناك أمام المدفأة توقفت لحظات تتساءل أين هي وماذا تفعل ، ثم وجدت نفسها تنهالك على الأرض قهالكت ، وفي هدوء وكبرياء ثاءبت وماتت ، وحدها هناك على البساط النبيتي العتيق .

نعم كنت أحب دائماً أن أشفع هذا الصوت بالمسح في حنان على ظهر صاحبه الناعم الأسود ، وبتحسس أسفل عنقها الأبيض المرتعش بذبذبات القراءة ، أما الآن فليس أمامي سوى أن أستمع بالصمت وحده .

وفي آخر الشونة وهج لإحدى جمرات الفحم في جوزة جمعة ،

أنحله بسندها إلى ساقه المحبسة لكي يصلح شأن الجمرات ويسعل . والكوخ الحجري شبح في الظلام لقبر كبير ، في جوفه جمعة وأسرته والعصافير والأصمحت . شيئاً فشيئاً بدأت تستبين زواياه وترسم على سماء آخذة في الاصفرار ، مع ظهور ذلك الجسم النحاسي فوق سقفه مثل عين فضولية تلتصص على أتباعها من مجاذيب القمر . الربع الأخير من شمامة اسماعيلية كبيرة صفراء بلون الشواطئ الرملية للترعة ، حيث ألقى بنفسه ليترد ذلك الذي جاء من أقصى سيناء بحري . بل هي كتلة سوداء متفحمة سرفت من الشمس بريق شعاع أصفر ، جامدة هامة جرداء لا حياة فيها ، وآثار بين بحر العواصف وبحر الظلمات لأحذية المغامرين الأمريكيين الذين هبطوا هناك يوماً . عسى أن تكون الأجهزة التي وصلت إلى القمر قادرة على أن تصل إلى سر دوحتك يا عزيزتي أمونة .

- سي تس آووو ! سي تس آووو ! كرررررر !

الأصوات تتداخل وتندمج وتذوب في صوت واحد شجي وجليل ، وصوت جديد بدأ يتسلل إلى المعزوفة في حياء أول الأمر ثم في جراءة وانطلاق . شبيه بصوت الوترية وهي في ذروة نشوتها ، وبحيرات خضراء معنصرة من جوف البحر الأزرق العظيم الفائر . شعاع ضوء تجمد في الفضاء بعد أن مروره خلال وعاء من البيللور مليء بالنبيذ الكوفي ، الذي بدعوا في تعتيقه منذ مليون سنة ضوئية . فلو أن أمينة هنا لأقسمت أن هذا صوت الملائكة وقد تنزل كورال منها ليبارك حديقتنا الصغيرة الطاهرة . هذه أسهل عندها من أن تعترف بأن هذا هو صوت الشجر يسمعه وقتما يشاء لمن يشاء من أحبابه . وأنا واثق من أن لينا قد قالت



الليلة كلاماً ضاع في هذا الزحام ، حيث وقفت تداعب بجذورها هيكل  
موني المثابثة إلى الأبد .

ونبرة معدنية ميزتها أذني وسط كل تلك الأصوات ، وماذا يمنع  
النمل من أن يشترك هو الآخر في الرقة من أعماق جحوره الرطبة المظلمة ؟  
وهذا الصوت الآخر الرقيق الشجي ، مثل قطرة ندى أو بقعة ضوء ترقص  
تحت تمارا ، المتسلل إلى القلب من خلال غلالة رقيقة من الرقيق ،  
من يمكن أن يصدره سوى الفراشة الصغيرة البيضاء ؟

وفي الفضاء البعيد صدى مرتعش لضحكة صغيرة لا خشنة ولا  
ناعمة ، مصحوبة بدعوة لي باكتمال العقل . وأصوات أخرى غريبة  
بدأت تتطفل على المعزوفة وتفسد جلالها ، فلعله يحسن بي أن أنهض  
للنوم بعد أن أرشف القطرة الأخيرة في الكوب الخزف البني . نعم يحسن  
بي أن أنهض وبسرعة قبل أن أتورط في مهارة سوقية مع ذلك الصوت  
الذي أسمعه آتياً من بعيد وهو يقول لي بضحكته الوقحة أن هاوهم أو .

:: سهر الليل :: ليلاس ::  
[www.liilas.com/vb3](http://www.liilas.com/vb3)

## المحتويات

صفحة	
٤	تقديم .....
	الفصل الأول :
١٠	الفراشة البيضاء .....
	الفصل الثاني :
١٨	أمنية وحمادة وفيدو .....
	الفصل الثالث :
٢٦	رينا والنخلة وذكر البط .....
	الفصل الرابع :
٣٤	فضيحة في عالم الحداث .....
	الفصل الخامس :
٤٠	فضيحة الهدد .....
	الفصل السادس :
٤٦	بجانب المدفأة .....
	الفصل السابع :
٥٤	موني .....



## الفصل الثامن :

الشجرة الغريبة ..... ٦٢

## الفصل التاسع :

فيدو يتشمس - رسالة حمادة والدوخة ..... ٦٦

## الفصل العاشر :

الولد يلعب ..... ٧٢

## الفصل الحادي عشر :

موني والصفدة ..... ٧٦

## الفصل الثاني عشر :

رينا والملاك الحارس ..... ٨٢

## الفصل الثالث عشر :

موت شحاتة ..... ٨٨

## الفصل الرابع عشر :

أمنية في السرير وشاي بالياسمين ..... ٩٤

## الفصل الخامس عشر :

القطعة والسحلية ..... ١٠٠

## الفصل السادس عشر :

الياسمين على البساط ..... ١٠٤

## الفصل السابع عشر :

فرس النبي ..... ١١٠

## الفصل الثامن عشر :

النمل وأمي وجمعة ..... ١١٨

## الفصل التاسع عشر :

موت فيدو ..... ١٢٤

## الفصل العشرون :

من هي الشجرة ؟ ..... ١٣٠

## الفصل الحادي والعشرون :

السقوط العظيم ..... ١٣٦

## الفصل الثاني والعشرون :

النهاية ..... ١٤٤